

سُورَةُ الْمُسْتَحَنِّاتِ
بَيْنَ نِدَاءِ الْعَقِيدَةِ وَحَنِينِ الْقَرَابَةِ
تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْمُمتَحِنَةِ

بَيْنَ نِدَاءِ الْعَقِيدَةِ وَحَنِينِ الْقَرَابَةِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

يقوم هذا الكتاب على قراءة تدبيرية أدبية لسورة الممتحنة، تستنير بدلالات ألفاظها، وتتابع نظم آياتها، وتراعي سياق نزولها ووحداتها الموضوعية، ثم تعبر من المعنى المباشر إلى آفاقه الإيمانية والنفسية والاجتماعية، من غير أن تدعي الإحاطة بمراد الله تعالى، أو تجعل الخواطر الأدبية بدلاً عن التفسير المعبر. فكتاب الله أوسع من أن تستنفد معانيه قراءة واحدة، وأجل من أن يُحصَر نوره في تجربة قارئ أو عبارة كاتب؛ وإنما غاية هذا السفر أن يقف على عتبات السورة بقلب مصنغ، وأن يتلقى هداياتها بوصفها خطاباً حياً يمتحن الإنسان في ولائه، وخوفه، ومحبه، وعدله، وعلاقته بالناس، ثم يعيد ترتيب هذه المعاني جميعاً تحت سلطان العبودية لله.

وقد التزم الكتاب بالسير مع آيات السورة وفق ترتيبها، مع جمع الآيات المتأخية في وحدات موضوعية متصلة، بحيث تقرأ السورة بناءً متكاملًا لا مجموعة أحكام متفرقة. فابتدأ بالنداء الذي نزل في شأن مكتبة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى أهل مكة، وتدبر ما يكشفه هذا الموقف من تعقيد النفس المؤمنة حين تتجاذبها أمانة العقيدة ومخاوف القرابة، ثم انتقل إلى أسوة إبراهيم عليه السلام والذين معه، وما تحمله من وضوح التوحيد، والبراءة من الباطل، ورقة القلب، والتوكل، والإنابة، والاستغفار. وبعد ذلك وقف عند رجاء انقلاب العداوة مودةً، وعند الميزان القرآني الدقيق الذي يفرق بين المخالف المسالم والمعتدي المحارب، فلا يجعل اختلاف العقيدة ذريعةً للظلم، ولا يجعل البر الرحمة باباً إلى التفریط والخيانة.

ثم تابع الكتاب مشهد المؤمنات المهاجرات، فقرأ امتحانهن لا بوصفه إجراءً تاريخياً منقطعاً، بل مشهداً يكشف استقلال المرأة في إيمانها، وكرامة قرارها، ومسؤولية المجتمع المؤمن عن حمايتها وصيانة حقوقها. كما تأمل الأحكام المالية والأسرية الواردة في هذا السياق، وما تنطوي عليه من عدل يظل قائماً في زمن الخصومة، فلا تُسقط الحرب حقوق الناس، ولا تتحول المخالفة إلى مبرر لأكل الأموال أو تجاوز الحدود. ثم انتهى إلى بيعة النساء، فرأى فيها ميثاقاً أخلاقياً جامعاً يبدأ بتوحيد الله، ويمتد إلى صيانة المال والعرض والنسل واللسان، وينتهي بالطاعة في المعروف، ليظهر أن الإيمان ليس دعوى وجدانية معزولة، بل نظام يعيد تشكيل ضمير الإنسان وسلوكه وعلاقته.

ولا يقصد هذا الكتاب بمباحث الولاء والبراء أن يحوّلها إلى شعارات للصراع، أو أن ينتزعها من شبكة العدل والرحمة والقسط التي أقامتها السورة نفسها؛ فالبراء القرآنية ليست إذناً بالظلم، والولاء لله لا يعني تعطيل البرّ الإنساني، كما أن الإحسان إلى المسالم لا يعني الذوبان في باطله، والرحمة بالمخالف لا تعني تسليمه أسرار المؤمنين أو إعانته على عدوانه. ولذلك حرصت هذه القراءة على إبقاء المعاني متجاوزةً كما أبقاها القرآن: وضوح لا يميع، ورحمة لا تخون، وبراءة لا تطفى، وير لا يهدم حدود العقيدة، وعدل لا يتغير بتغير أسماء الناس ومواقفهم.

وقد جرى التمييز في صفحات الكتاب بين المعنى التفسيري الذي تدل عليه اللغة والسياق وما قرره أهل العلم، وبين الامتداد التدريبي الذي يستلهم الآية في تركيبة القلب وقراءة النفس والواقع. فما كان متصلاً بسبب نزول أو حكم شرعي روعي فيه المأثور والمعنى المعتمد، وما كان من قبيل التأمل الأدبي والنفسي قُدم بوصفه استنباطاً يفتح باب التفكير، لا تفسيراً نهائياً ولا حكماً ملزماً. فالتدبر الصحيح لا يزاحم التفسير، وإنما يبدأ منه؛ ولا يحلّ اللفظ ما لا يحتمل، وإنما يصغي إلى إشعاعاته بعد تثبيت معناه؛ ولا يقتطع الآية من سياقها لودع فيها فكرة سابقة، بل يترك للآية أن تعيد تشكيل أفكاره وموازينه.

ولأن سورة الممتحنة نزلت في سياق تاريخي محدد، فقد حافظ الكتاب على حضور ذلك السياق؛ إذ لا تفهم بعض أحكامها بعيداً عن الهجرة، وصلاح الحديبية، وحالة الصراع بين الجماعة المؤمنة ومشركي مكة، وما نشأ عنها من قضايا الأسر والعهود والأنكحة والأموال. غير أن استحضار التاريخ لم يكن غايةً في ذاته، بل جسراً إلى الهداية الباقية؛ فالواقعة تنقضي، لكن طبيعة القلب الذي امتحنته لا تنقضي، والرسالة التي خرجت سراً من المدينة كانت حادثةً مخصوصة، غير أن خوف الإنسان على مصالحه وأهله قد يدفعه في كل عصرٍ إلى رسائل أخرى، وتنازلات أخرى، ومواضع ضعفٍ لا يراها الناس وتراها عين الله.

كما لا يسعى هذا السفر إلى استنساخ وقائع السورة على كل حادثة معاصرة، ولا إلى إطلاق أحكامها العقدية والسياسية على الأفراد والجماعات بغير علمٍ وتحقيقٍ؛ فتزِيل الأحكام على الأعيان والوقائع بابٌ له شروطه وأهله، ولا يجوز أن تحول الخطوط التدرجية إلى أداة للتسرع في الحكم على السرائر أو تصنيف الناس. وإنما المقصود أن يتلقى القارئ الموازين الكبرى التي تبنيها السورة: تقديم مرضاة الله على الخوف، وصيانة الأمانة، والتمييز بين المسلم والمخالف، والعدل في زمن العداوة، وحماية المستضعف، واحترام العقود والحقوق، وإبقاء باب الهداية مفتوحاً لمن تغير ورجع.

ويعتمد أسلوب الكتاب على السرد الأدبي المتصل؛ لأن المقصود ليس عرض المسائل في صورة متنٍ تعليمي جاف، بل إدخال القارئ في مناخ السورة، حتى يشعر أن آياتها لا تصف قلوباً غابت في التاريخ فحسب، وإنما تصف قلبه هو حين يخاف، ويحب، ويتردد، ويبحث عن الأمان، ويخاصم، ويربر لنفسه. غير أن اللغة الأدبية هنا خادمةٌ للمعنى القرآني لا متقدمةٌ عليه، والصورة البلاغية وسيلةٌ لتقريب الهداية إلى الوجدان لا لإخفاء حدود الدلالة، فالجمال الذي لا يرد القلب إلى الله زينةٌ عابرة، والعبارة التي تبهّر القارئ ولا تزيده بصيرةً قد حجب المعنى بدل أن تكشفه.

إن السؤال المركزي الذي ينتظم هذا الكتاب ليس: مَنْ نحب وَمَنْ نبغض فحسب، بل: مَنْ الذي يملك ترتيب الحب والبغض في قلوبنا؟ أهو الله ووجهه، أم الخوف والمصلحة والعصبية وذاكرة الجراح؟ ومن هذا السؤال تنفرع سائر تأملاته؛ لأن سورة الممتحنة لا تريد إلغاء العاطفة، بل تركيبتها، ولا تريد تجريد الإنسان من حنينه، بل منعه من أن يتحول إلى خيانة،

ولا تريد أن تطفئ رحمته، بل أن تمنحها بصيرةً تميز بين برّ المسالم وولاية المعتدي. إنها تبني قلباً يستطيع أن يحب بعمق، وأن يفارق عند الضرورة، وأن يعدل مع الخصم، وأن يرجو هدايته، وأن يبقى في ذلك كله وفياً لله.

ومن ثمّ، فهذه الصفحات ليست شرحاً لسورة تقع خارج القارئ، وإنما دعوة إلى أن يدخل هو في امتحانها؛ أن يعرض عليها ولاءاته الخفية، ومصادر أمانه، وحدود طاعته، وطريقة خصومته، وصدقه في العدل، ونظرته إلى المرأة والضعيف والمخالف، ومقدار حضور الآخرة في قراراته. فإذا خرج منها أكثر حذراً من خيانة الأمانة، وأشدّ رحمةً بالمسلم، وأعدل مع المختلف، وأقوى ثباتاً أمام العدوان، وأصدق توكلاً على الله، فقد أدرك شيئاً من هدايتها.

ويبقى هذا العمل اجتهداً بشرياً يعتريه النقص، فما كان فيه من صواب فمن فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ أو قصور فمن النفس، والله ورسوله منه بريئان. وحسبه أن يكون مصباحاً صغيراً عند باب السورة، لا يزعم أنه استوعب أنوارها، ولكنه يرجو أن يعين قلباً على الدخول إليها بخشوع، وأن يوقظ في نفس قارئها ذلك السؤال الذي لا تنتهي السورة إلا وقد زرعت في أعماقه: إذا وضع قلبك بين نداء الله وكل ما تحب، فلمن تكون الغلبة؟

ليست كل الامتحانات أوراقاً تُبسط أمام العيون، ولا أسئلة تُلقى على الأسماع، ولا مواقف صاخبة يتبين فيها الشجاع من الجبان، فقد يمتحن الإنسان في موضع لا يراه فيه أحد، حين يختلي بقلبه، وتتجاذبه في الداخل أصوات متعارضة: صوت الإيمان يدعو إلى الوفاء لله، وصوت الحنين يشده إلى أهله، وصوت الخوف يهول له عواقب الطريق، وصوت المصلحة يزين له أنصاف المواقف، ثم يبقى وحيداً بين هذه النداءات، لا يملك أن يختبئ من الله وراء عبارة جميلة، ولا أن يستر ضعفه بحجة محكمة؛ لأن الله لا ينظر إلى الصورة التي أحسن العقل ترتيبها، بل إلى الحقيقة التي اضطرب بها القلب قبل أن تتحول إلى قول أو فعل. وهنا تأتي سورة الممتحنة، لا لتضع الإنسان أمام عدوه فحسب، بل لتضعه أمام نفسه، ولا لتحدد له من يحب ومن يبغض في جفاف قاس، بل لتعلمه كيف يكون قلبه لله من غير أن يفقد إنسانيته، وكيف يصون عقيدته من غير أن يتحول إلى كتلة من الجفاء، وكيف يفرق بين البر الذي يحبه الله، والولاء الذي لا يجوز أن يصرف إلا له ولدينه، وبين الرحمة التي تهدي إلى المسالم، والمودة التي تفضي بصاحبها إلى كشف مواضع المؤمنين وإعانة من يحاربهم.

ومن عجيب هذه السورة أن اسمها نفسه يحمل سرّها: «الممتحنة»، فهي سورة الامتحان الذي لا يقتصر على المؤمنات المهاجرات الوارد ذكرهن فيها، بل يمتد إلى كل قلب يقرأها بصدق؛ إذ تسأله من حيث لا يشعر: أين يقف حب الله في ترتيب محابك؟ وماذا يبقى من يقينك إذا عارضته مصلحة عاجلة أو قرابة عزيزة؟ وهل تستطيع أن تعدل مع من خالفك، وأن تبرّ من لم يقاتلك، من غير أن تذيب الفوارق بين الحق والباطل؟ وهل تستطيع في المقابل أن تثبرا من عدوان المعتدي من غير أن تتجاوز حدّ الله في الكراهية؟ إنها لا تمنح المؤمن شعارات جاهزة يرفعها في وجه العالم، بل تبني في داخله ميزاناً بالغ الدقة، لا يميل مع العاطفة إذا طغت، ولا يتصلب مع الخصومة إذا اشتدت، ميزاناً يعرف أن العقيدة عهد، وأن العدل عبادة، وأن الرحمة لا تعني التفریط، وأن الحزم لا يعني القسوة، وأن القلب قد يكون رقيقاً وفيّاً للإنسان، ولكنه في الوقت نفسه أصلب من الجبل حين يطلب منه أن يخون الله.

وسورة الممتحنة من السور التي نزلت في مجتمع لم تكن فيه الحدود بين الناس أفكاراً مجردة، بل كانت دماً وقرابة وبيوتاً وذكريات. كان المؤمن يومئذ قد يجد أباه أو أخاه أو ابنه أو عشيرته في الصفّ المقابل، ويجد في المدينة غرباء صاروا بالإيمان أقرب إليه من أهله، وكان عليه أن يعيد بناء خريطة قلبه كلّها على ضوء الوحي. لم يكن الأمر يسيراً، لأن الإنسان لا يخرج من مكة كما يخرج من ثوب قديم، فكة ليست جدراناً نحسب، بل طفولة وأسماء وروائح طرق وأصوات أمهات ووجوه أحبة، والهجرة لا تنزع هذه الأشياء من الذاكرة. وربما خرج الجسد مهاجراً وبقيت في أعماق النفس خيوط دقيقة تشده إلى ما وراءه، حتى إذا أحاط به الخوف على أهله تحركت تلك الخيوط، وقد تدفعه إلى فعل يظنه تدبيراً شخصياً صغيراً، بينما يراه الوحي صدعاً في جدار الجماعة المؤمنة. ومن هنا تبدأ السورة من واقعة إنسانية شديدة

التعقيد، لا من مثال نظريّ بارد؛ تبدأ من صحابيٍّ مؤمن صادق شهد بصدق، غلبه الخوف على أهله في لحظة، فكتب إلى أهل مكة يخبرهم بشيء من أمر رسول الله ﷺ، ظاناً أنه يشتري بذلك حمايةً لأسرته، فإذا بالوحي يلحق بالرسالة في الطريق، ويمسك باليد التي مدها الخوف من قلب مؤمن، ثم لا يتركها حتى يعيدها إلى موضعها الصحيح.

وهكذا تفتح السورة على مشهد بالغ الهيبة: قلب مؤمن ارتجف تحت ضغط القرابة، وسرّ خرج من المدينة يريد مكة، وكتاب خيئ عن الأعين، وعين الله لا تخفى عليها خافية. كأن السورة تقول منذ أول أنفاسها: إن الامتحان الحقيقي يبدأ حين تظن أن لا أحد يراك، وحين تضعف في المسافة الواقعة بين النية والفعل، وحين تسوّغ لنفسك أن المصلحة الخاصة لا تمس المبدأ العام. هناك، في تلك المنطقة الخفية، يأتي القرآن لا ليهدم الإنسان المخطئ، بل ليكشف له خطأه، ويهزّ وجدانه، ويفصل بين أصالة إيمانه وعثرة اجتجاده، حتى يعلم كل سالك إلى الله أن الصدق لا يعني العصمة من الزلل، وإنما يعني أن يعود القلب إذا ناداه الله، وألاً يحول عثرته إلى مذهب، ولا ضعفه إلى حجة، ولا خوفه إلى ميزانٍ يعيد به تعريف الحق.

يفتح الله السورة ببدء الإيمان، ذلك النداء الذي لا يستخرج من الإنسان معلومة، بل يستدعي منه عهداً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وما أشد ما في هذا النداء من مزيج العتاب والتذكير؛ فهو لا يقول لهم: يا من أخطأتم، بل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيستنهض أجهل ما فيهم لمواجهة أضعف ما صدر عنهم، ويدكرهم بالاسم الذي ارتضوه لأنفسهم قبل أن يكشف لهم الفعل الذي لا يليق بهذا الاسم. وهذه طريقة القرآن في تربية المؤمن: لا يحبسه داخل خطيئته، ولا يعرفه بعثرته وحدها، بل يناديه من مقام إيمانه ليقول له: إن فيك حقيقةً أرفع من هذا الفعل، فارجع إلى حقيقتك، ولا تسمح للحظة ضعف أن تعيد تسمية روحك.

ثم يقول: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، فيقدم عداوتهم لله على عداوتهم للمؤمنين، كأن القضية ليست ثأراً شخصياً ولا استجابة لجرح ذاتي، بل موقف من قوم حاربوا الحق لأنه حق، وأخرجوا الرسول والمؤمنين لا لذنب اقترفوه في ميزان الأرض، بل لأنهم قالوا: ربنا الله. إن المؤمن لا يبنى علاقته بالمعتدي على مقدار ما أصابه شخصياً فحسب؛ فقد يكون قادراً على التسامح في حق نفسه، وهذا مقام كريم، لكنه لا يملك أن يتسامح فيما ليس ملكاً له، ولا أن يحول العفو الشخصي إلى تفريط في أمانة الجماعة، ولا أن يهب عدو الحق سرّاً استؤمن عليه، لأن القلب حين يدخل في عهد الإيمان لا تعود قراراته كلها شأناً فردياً، بعض الأفعال تبدأ من خوف خاص، لكنها تنتهي إلى خطر عام، وبعض الرسائل يكتبها فرد بيده، لكنها قد تفتح على جماعة أبواباً من الأذى لا تغلق.

وتأمل هذا التعبير المريف: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾. كأن المودة شيء يخرج من القلب فتلقى به اليد إلى الطرف الآخر، وكأن المشاعر ليست حالات ساكنة لا سلطان للإنسان عليها، بل قد تتحول إلى أفعال ورسائل وأسرار ومواقف. والقرآن لا يحاكم مجرد الخاطر الذي يمر بالقلب، ولا الحنين الإنساني الذي يعبر النفس، ولكنه يقف عند اللحظة التي تتحول فيها العاطفة إلى ولأء عملي يهدد الحق. فليس كل تعاطف خيانة، وليس كل رحمة مولاة، وليس كل بر ذوباناً، ولكن حين تخرج المودة من حدود الشعور القطري إلى كشف الأسرار، أو نصرة المعتدي، أو تزيين باطله، أو إضعاف صف المؤمنين؛ فإنها لم تعد رقة إنسانية، بل صارت خرقاً في جدار الأمانة.

ولا تترك الآية للمؤمن أن يجمل صورة من حاربوه، فتقيم أمام عينه سجل الحقيقة: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾. لقد ارتكبوا جريمتهم الكبرى في نظرهم لأنكم آمنتم، وما كان خروجكم طمعاً في دنيا، ولا نزاعاً على أرض، بل لأن قلوبكم اختارت ربها. وفي قوله: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مفارقة تهز الوجدان؛ إذ صار

الإيمان بالله، وهو أشرف ما في الإنسان، ذنباً في ميزان الطغاة يستحق صاحبه الإخراج. وحين تبلغ الموازين هذا الحد من الانقلاب، لا يعود من الحكمة أن تعامل العداوة المنظمة كما لو كانت خلافاً عابراً بين أصدقاء، ولا أن يُقابل الإخراج والتأمر بسذاجة عاطفية تسمي نفسها رحمة. إن الرحمة التي لا تبصر حقيقة الشر قد تتحول إلى طريق يمضي منه الشر نحو الأبرياء، والحب الذي لا يضبطه الحق قد يصبح أداة في يد من لا يعرف للحب حرمة.

ثم يأتي الاستفهام الكامن في الشرط: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾. إن كنتم خرجتم من مكة لله، فلا تقبوا فيها بقلوبكم على نحو يعيد سلطانها عليكم؛ وإن كنتم تركتم الديار ابتغاء مرضاتي، فلا تجعلوا خوفكم على ما تركتموه يهزم الغاية التي خرجتم من أجلها. وليس أصعب على النفس من أن تكتشف أن الهجرة ليست خطوة واحدة تقطع بالأقدام، بل طريق طويل يقطع القلب كل يوم؛ فقد يخرج الإنسان من المكان، ولا يخرج المكان من حساباته، وقد يعلن انتماءه إلى الحق، ثم تظل مصالحه القديمة تمسك بأطراف قراره. ولذلك كان لا بد للهجرة الظاهرة من هجرة باطنة: أن ينتقل مركز الثقل في النفس من الخلق إلى الخالق، ومن ضمانات الأرض إلى ضمان السماء، ومن الخوف على الأهل والمال إلى الثقة بمن لا تضع عنده الودائع.

وهنا يبلغ العتاب ذروته الهادئة المرعبة: ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. ما قيمة السر إذا كان الله يعلمه؟ وما الذي يربحه الإنسان حين يخج في إخفاء فعله عن الخلق، ثم يقف به مكشوفاً أمام الخالق؟ إن كثيراً من الانحراف لا يبدأ حين يضعف الإيمان بوجود الله، بل حين تضعف في القلب هيبة علمه. يعلم الإنسان أن الله موجود، لكنه يتصرف لحظة كأن الله لا يرى التفاصيل، كأن العلم الإلهي يقف عند الأفعال الكبرى ولا يدخل إلى الرسائل الخفية، وإلى النيات المرتبكة، وإلى المحج التي يصوغها المرء لنفسه قبل أن يعرضها على الناس. فتأتي الآية لتعيد إلى الوعي ذلك الحضور الشامل: أنا أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم؛ أعلم الفعل، وأعلم الدافع، وأعلم مقدار الخوف الذي دفعكم إليه، وأعلم ما فيكم من إيمان لم تقصدوا خيانتته، وأعلم مع ذلك أن الفعل انحرف عن سواء السبيل. فالعلم الإلهي لا يظلم النية، لكنه لا يسمح للنية الحسنة أن تغير حقيقة العمل الفاسد.

وفي خاتمة الآية: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، لم يقل: ضل السبيل فحسب، بل ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي وسطه الواضح المستقيم. وربما كان في هذا إشارة إلى أن أخطر الضلال ما وقع من إنسان يعرف الطريق ثم مال عنه تحت ضغط ظرف طارئ، فهو لا يحتاج إلى خريطة جديدة بقدر ما يحتاج إلى أن يعيد قدميه إلى الجادة. إن حاطباً لم يكن منافقاً يكره المؤمنين ويحب انتصار الشرك، ولم يبدل عقيدته، ولكنه أخطأ في وسيلة أراد بها حماية أهله، فكشف القرآن خطورة الفعل من غير أن يحو تاريخ صاحبه، وجمع رسول الله ﷺ في معالجته بين صرامة حماية الجماعة وعدل النظر إلى الرجل وسابقتها وصدقه. وهذا من أعمق دروس السورة: أن نسمي الخطأ خطأ بلا تردد، وأن نرى الإنسان أكبر من خطئه بلا سذاجة؛ فلا

نذيب الجريمة في حسن الظن، ولا نذيب صاحب العثرة في عثرته، بل نزن الفعل بميزان الحق،
ونزن الشخص بكل ما نعلم من حاله، ونترك لله ما خفي من القلوب.

ثم تتنزع السورة من القلب الوهم الذي أغراه بالخطأ، فتقول: ﴿إِنْ يَتَّقُوا كُفْرًا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسُّوءُ وَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾. إن الذين تطلب ودهم لتحتمي بهم قد لا يحفظون لك ودًا إذا ظفروا بك، واليد التي ترجو منها حماية أهلِكَ قد تمتد إليك بالأذى، واللسان الذي تشتري صمته بسرِّك قد ينطلق في عرضك ودينك وجماعتك بالسوء. وهنا يكشف القرآن خطأ نفسياً يتكرر في حياة البشر: حين يخاف الإنسان، يبالغ في تقدير قدرة المخلوق الذي يرجو نفعه، ويصنع في وهمه صفقة تبدو محكمة، ثم ينسى أن القلوب التي لا يملكها الله له لن يشتريها بتنازله، وأن من استغل ضعفه مرةً سيطمع في ضعفه مراراً، وأن التنازل الذي يبدأ طلباً للسلامة قد ينتهي إلى سلسلة من الارتهاان لا تتقطع.

غير أن ذروة الخطر ليست في بسط الأيدي بالسوء، ولا في طعن الألسنة، بل في قوله: ﴿وَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾. فغاية المعركة ليست جسد المؤمن وحده، بل المعنى الذي يحمله؛ وليس المطلوب عند عدو الحق أن يتألم المؤمن فحسب، بل أن يتخلى عن النور الذي أخرجه من سلطانهم. إنهم قد يقبلون منك أشياء كثيرة، ولكنهم لا يطمثون حتى تصبح نسخة لا تغلق باطلهم، وحتى تطفئ فيك الكلمة التي تذكّرهم بأن فوق سلطانهم سلطاناً، وفوق موازينهم ميزاناً، وفوق دنياهم آخرة. ولهذا كان حفظ الإيمان أعظم من حفظ الراحة، وحماية القلب مقدمة على حماية المصلحة؛ لأنك إن خسرت شيئاً من الدنيا وبقي لك الله، فقد بقي لك أصل كل شيء، وإن ربحت السلامة كلّها وخسرت صلتك بالله، فقد نجوت بجسدك إلى خرابك.

ثم تأتي الضربة التي تفكّ آخر عقدة في النفس: ﴿لَنْ تَفْعَلَكَ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ولم يقل القرآن إن الأرحام والأولاد لا قيمة لهم، فالإسلام هو الذي عظم الرحم، وأوجب البر، وجعل النفقة والرعاية والحنان عبادات، لكنه يردّ الأشياء إلى مراتبها، فالأهل نعمة، وليسوا إلهاء، والولد ودعة، وليس قبة للقلب، والرحم حق، لكنه لا يعلو على حق الله. وحين يقع التعارض الفاصل، لا يجوز للفرع أن يقتلع الأصل، ولا للعطية أن تحجب المنعم، ولا للحب الذي وهبه الله أن يصير قوة تصرف الإنسان عن الله.

إن قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفتح في القلب مشهداً موجعاً: تلك الروابط التي بدت في الدنيا كأنها لا تنفصم، ستقف عند حدها، وسينفرد كل إنسان بعمله، فلا الرسالة التي أرسلها لحماية أهله تحو عنه تبعة الخيانة إن أصرّ عليها، ولا الأهل الذين خاف عليهم يحملون عنه من الحساب شيئاً. وهناك يعرف المرء أن أعظم ما يقدمه لأهله ليس أن يحميهم بمعصية الله، بل أن يظلّ مستقيماً ليكون لهم باباً إلى رضاه، وأن الحب الذي يقود صاحبه وصاحبه إلى غضب الله ليس حباً كاملاً، بل عاطفة عمياء عجزت عن رؤية النهاية. فالحب الصادق لا يكتفي بأن يسأل: كيف أحفظك اليوم؟ بل يسأل أيضاً: كيف لا أخسرك يوم يفصل الله بين العباد؟

وهكذا لا تطلب السورة من المؤمن أن يقتل عاطفته، بل أن يطهرها من العبودية؛ لا تقول له: لا تحب أهلك، بل تقول: لا تجعل حبهم يهزم حب الحق؛ ولا تقول: لا تخف عليهم، بل تقول: لا تجعل خوفك عليهم يقودك إلى ما يعرضك ويعرضهم لسخط الله؛ ولا تقول: اخرج من إنسانيتك لتكون مؤمناً، بل تكشف لك أن الإيمان هو الذي ينقذ إنسانيتك من أن تتحول إلى انحياز أعمى، ويمنح عاطفتك بصيرة ترى القريب قريباً، ولكنها ترى الله أقرب، وترى الولد عزيزاً، ولكنها تعرف أن الحق أعز، وترى الدنيا ميدان اللقاء، ولكنها لا تنسى اليوم الذي تخلص فيه الروابط كلها، ولا يبقى إلا ما كان لله.

بعد أن كشفت السورة موضع الضعف في القلب، وأرته كيف يمكن للخوف على الأهل أن يتسلل إلى منطقة الولاء، لم تتركه في فراغ النبي، بل أقامت أمامه نموذجاً بشرياً مضيقاً، ليرى كيف تتحول العقيدة من فكرة في الذهن إلى موقف يسكن الروح ويعيد ترتيب العلاقات: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لِاسْتُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. وما كان اختيار إبراهيم عليه السلام عبثاً؛ فهو إمام الحنيفية، والرجل الذي امتحنه الله في مواضع الحب جميعاً، فوقف في كل مرة بين نداء التوحيد ونداء من نداءات الطبع: بين الحق وقومه، وبين الرسالة وأبيه، وبين أمر الله وحنانه على ابنه، وبين اليقين ووحشة الهجرة، فما جعل من عاطفته معولاً يهدم به عقيدته، ولا من عقيدته سكيناً يذبح بها رفته، بل ظل قلبه ممتلئاً بالرحمة، وظل توحيده مع ذلك صافياً لا تشوبه مدهانة.

يقول الله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والأسوة ليست ذكرى تُروى للإعجاب، بل صورة تُستدعى للاقتداء؛ فكان القرآن يخرج إبراهيم من أعماق التاريخ ليوقف إلى جوار المؤمن في لحظة امتحانه، ويقول له: لم تكن أول من وضع بين حب الله وحب القرابة، ولم تكن أول من اضطر إلى مفارقة بيئة ألفها، ولم تكن أول من دفع ثمن كلمة التوحيد وحدهً وغربةً وفقداناً، فهذا أبو الأنبياء قد سبقك في الطريق، ولم تنقص البراءة من الباطل رحمته، ولم تمنع رحمته وضوح البراءة. إن النماذج القرآنية لا تعرض علينا كي نشعر بضالة أنفسنا أمام عظمتها فحسب، بل كي نكتشف أن الطريق الذي تمشي به قد وطئته أقدام الأنبياء، وأن الوحشة التي نجدها ليست علامة ضلال ما دمننا نسير في إثرهم، وأن المؤمن إذا قل أنصاره على الأرض لم يكن وحيداً؛ لأن له نسباً من النور يمتد من إبراهيم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، ومن كل قلب اختار الله حين ازدحم عليه المحاب.

ولم يقل القرآن: «في إبراهيم» وحده، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ لأن البطولة الإيمانية ليست حكراً على الأنبياء، ولأن في ظلال النبوة قلوباً عادية ارتفعت بالصدق حتى صارت جديرة أن يخلد الله موقفها في كتاب يُتلى إلى قيام الساعة. لم يذكر أسماءهم، وكأن أسماءهم ذابت في المعنى الذي اجتمعوا عليه؛ فهم «الذين معه»، شرفهم أنهم كانوا مع الحق حين قلّ أهله، ومع إبراهيم حين ثقل ثمن المعية. وفي هذا عزاء لكل مؤمن مجهول في الأرض معروف في السماء، لم تُكتب سيرته في دواوين البشر، لكنه ثبت في لحظة كان الثبات فيها أحب إلى الله من أعمال كثيرة. فليست العبرة أن يعرف الناس اسمك، بل أن يجذك الله في الصف الصحيح حين تتشابه الصفوف، وليست الكرامة في أن نتقدم المشهد، بل أن تكون «مع» إمام الحق حين ينصرف عنه الناس.

قال إبراهيم والذين معه لقومهم: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. والبراءة هنا ليست نزوة غضب، ولا لذة خصومة، ولا انتقاماً من قوم آذوا المؤمنين، بل هي فعل تحرير للقلب من سلطان الباطل. إن التوحيد لا يكتمل بأن تقول لمن يستحق العبادة: أنت إلهي، حتى تقول لكل ما سواه: لست إلهاً؛ ولا يكفي أن يتجه القلب نحو الله ما دامت في زواياه أصنامٌ صغيرةٌ تمنحه أوامرهما، وتخيفه بسلطانها، وتستدرجه إلى طاعتها. ولذلك كان أول التوحيد إثباتاً ونفيًا، امتلاءً وفراغًا، حبًّا لله وبراءةً من كل عبادة تُصرف إلى سواه. وما أكثر ما يظن الإنسان أنه موحد؛ لأنه لا يسجد لصنم من حجر، بينما يسجد قراره في الخفاء لصنم الجماعة، أو لصنم المصلحة، أو لصنم الخوف، أو لصنم السمعة، أو لصنم شخصٍ يحبه حتى يعجز أن يقول أمامه: هذا خطأ. فجاءت براءة إبراهيم لا لتحديثاً عن أصنام الماضي وحدها، بل لتسألنا عن الأصنام التي تعلبت أن تسكن القلب بلا أسماء.

وقد قدموا البراءة من القوم على البراءة مما يعبدون: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ﴾، لأن الباطل لا يبقى فكرة معلقة في الهواء، بل يتجسد في جماعة تحرسه، ونظامٍ يفرضه، وعلاقاتٍ تطلب من الإنسان أن يجاملها على حساب الحقيقة. ولا تعني البراءة من الأشخاص إهدار آدميتهم، ولا ظلمهم، ولا منع البر والإحسان عمن لم يقاتل؛ فقد ستأتي السورة نفسها لتغلق أبواب هذا الفهم الفاسد، ولكنها تعني رفض الانتماء العقدي إلى موقفهم، ورفض الذوبان في منظومتهم، ورفض منح باطلهم الشرعية التي يطلبها من صمت المؤمن أو مدهنته. فقد تحسن إلى الإنسان لأن الله أمرك بالإحسان، وتعديل معه لأن الله يحب العدل، وتلين له لعل قلبه يهتدي، ولكنك لا تسمي باطله حقًا كي يرضى عنك، ولا تنازل عن هوية روحك كي تشتري هدوء العلاقة.

وفي قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ انقلابٌ مهيّبٌ في اتجاه الكلمة؛ فقد كان الكافرون يكفرون بالله، فإذا بإبراهيم والمؤمنين معه يعلنون كفرهم بسلطان القوم ومنظومتهم وموازينهم ومعبوداتهم. وليس المقصود مقابلة الكفر بالكفر، وإنما إظهار الرفض الكامل لما يريد الباطل أن يفرضه بوصفه حقيقةً لا تُراجع. كأنهم يقولون: لم تعودوا أنتم المرجع الذي نستمد منه أسماء الأشياء، ولا المجتمع الذي نخاف حكمه، ولا القوة التي تمنحنا حق الوجود أو تسلبه؛ لقد خرجنا من سلطانكم يوم دخلنا في عبودية الله. وهذه هي الحرية التي يصنعها التوحيد: لا أن يعيش الإنسان بلا عبودية، فهذا محالٌ على الروح، بل أن يتحرر من عبودية ما لا يستحق، بأن يعبد المستحق وحده. فإذا عبد الله لم يعد محتاجاً أن يستعير قيمته من تصفيق الناس، ولا أن يبيع يقينه ليبقى مقبولاً في جماعةٍ تخاف من وضوحه.

ثم قالوا: ﴿وَيَدَّا بَيْنَنَا وَيَنْتَكِرُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾. وكلمة ﴿يَدَا﴾ توحى بأن شيئاً كان مستوراً فأنكشف، وأن العقيدة حين تستقر في القلب لا بد أن يظهر أثرها في الموقف، فلا تظل حقيقةً باطنيةً محبوسةً لا تغير شيئاً. ولكن هذه العداوة ليست عداوة دم

أولون أو نسب، وليست كراهية عمياء لذات الإنسان؛ والدليل أن الآية نفسها جعلت لها غايةً تنتهي عندها: ﴿حَتَّى تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾. فهي عداوة للباطل الذي يحمله الإنسان، لا رغبة في هلاكه؛ ولو كانت عداوة لذاته لما انتهت بإيمانه، ولما كان المؤمن يرجو له الهداية. إنك قد تكره المرض وتحب المريض، وتقاوم القيد وتريد تحرير الأسير، وترفض الفكرة التي أظلمت بها الروح وتظل تمنى للروح أن ترى النور. ومن هنا كانت البراءة القرآنية موقفًا عقديًا محكمًا، لا حقدًا نفسيًا منفلتًا؛ وهي لا تغلق باب الهداية، بل تقف عنده بوضوح، فلا تساوم على الحق ولا تياس من الإنسان.

أما قوله: ﴿أَبَدًا﴾ فلا يدل على أن الطريق قد انغلق، بل يدل على أن المؤمن لا يضع لثباته أجلًا مؤقتًا؛ فهو لا يقول: سأبقى على الحق حتى يطول البلاء، أو حتى تشتد الوحشة، أو حتى تتغير المصالح، بل يقول: سأبقى ما بقي سبب البراءة، فإذا زال السبب بالإيمان زالت الخصومة، وانقلب البعيد أخًا، وصار من كان بالأمس في الصف المقابل أقرب من قريب. وهذا من عدل العقيدة: لا تورث عداواتها للأسماء والأجناس، ولا تجعل الماضي سجنًا أبدًا لمن تاب، بل تغير حكمها بتغير الحقيقة. فالإنسان في ميزانها ليس أسير ما كان، وإنما يوزن بما صار إليه؛ وكم من عدوٍّ للحق أصبح جنديًا من جنوده، وكم من قلبٍ خاصم النور طويلاً ثم صار بعد الهداية نافذة يشرق منها على الآخرين.

ثم استئنفت الآية من الأسوة قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وفي هذا الاستثناء دقة تربوية عظيمة؛ فالقرآن حين يقدم القدوة لا يطلب من المؤمن أن يقلّد كل جزئية خارج سياقها، ولا أن يتخذ من موقف سابق على تبين الحقيقة حكماً مطلقاً. كان وعد إبراهيم أباه بالاستغفار صادراً عن رجاء سابق، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، كما بينت آية التوبة: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾. فالسورة تحفظ لإبراهيم رفته، لكنها تمنع أن تتحول تلك الرقة إلى حجة تُعارض بها حدود الوحي؛ وتحفظ للأب حق الخطاب اللين والدعوة الرحيمة، لكنها تقرر أن القرابة لا تمنح أحداً أماناً من حكم الله، ولا تجعل للابن سلطاناً على مصيره.

وما أرق قوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. إنه يضع الحبّ في مقامه الصحيح؛ أحبك، وأدعوك، وأرجو هدايتك، لكنني لا أملك لك من الله شيئاً. لا أملك أن أغير لك سنه، ولا أن أهبك نجاهاً لم تسلك طريقها، ولا أن أجعل قرابتك مني بديلاً عن إيمانك به. وهذه كلمة ينبغي أن يسمعها كل قلب أرهقه الخوف على من يحب: إنك لا تملك هدايتهم، ولا تملك آجالهم، ولا تملك أن تمنع عنهم كل ألم، ولا أن تفتح لهم كل باب، وإنما تملك أن تحبهم في الله، وأن تدعوهم إلى الله، وأن تؤدي نحوهم ما أمرك الله، ثم تسلّمهم لله. وما أكثر ما يتحول الحب إلى عذاب حين يتوهم الحب أنه مسؤول عن النتائج، فيحمل على كتفيه أقدار من يحب، وينسى أنه عبد لا رب، ودليل لا هادي القلوب، ورفيق في الطريق لا مالك لنهايته.

وهنا تنكشف لنا إنسانية إبراهيم في أبهى صورها؛ لم يكن التوحيد في قلبه حجراً بارداً، بل ناراً من النور اجتمع فيها الوضوح والحنان. خاطب أباه بلطف، ووعده أن يستغفر له ما دام يرجو إيمانه، ثم وقف عند حد الله حين تبين له الأمر. فلا الرقة أذابته في الباطل، ولا البراءة جرّته من أدب البنوة. وهذه هي الصعوبة الكبرى في الأخلاق القرآنية: أن تجمع ما يفرقه الناس؛ أن تكون واضحاً من غير فظاظ، رحيماً من غير مداهنة، حازماً من غير ظلم، وفيّاً لله من غير أن تحون الفطرة التي وضعها الله فيك. أما النفوس الكسولة فتختار طرفاً واحداً؛ إما أن تبيع الحقيقة باسم الرحمة، وإما أن تقتل الرحمة باسم الحقيقة، والقرآن يريد القلب القوي الذي يحمل الأمرين معاً، فلا ينكسر ميزانه تحت ثقل العاطفة ولا تحت ثقل الخصومة.

وبعد إعلان البراءة، يتحول كلام إبراهيم والذين معه إلى دعاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. كأنهم أدركوا أن المواقف الكبرى لا تحتملها النفس بقوتها المجردة؛ فالبراءة من قوم يملكون السلطة، ومفارقة الأهل، واحتمال الغربة، والثبات أمام التهديد، كل ذلك أكبر من أن ينهض به الإنسان اعتماداً على صلاته الشخصية. ولذلك لم يقولوا: نحن أقوياء، ولا: نحن قادرون، بل قالوا: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾. فالتوحيد الذي أعلنوه في وجوه قومهم لم يكن شعاراً سياسياً، بل كان اعتماداً داخلياً كاملاً على الله؛ قطعوا حبال الاتكال على الخلق، ثم لم يسقطوا في فراغ، لأن قلوبهم تعلقت بالحبل الذي لا ينقطع.

وتقديم ﴿عَلَيْكَ﴾ يحمل معنى الحصر: عليك وحدك توكلنا، لا على عدد ولا عدة، ولا على ذكاء ولا حيلة، ولا على قبيلة تحمي، ولا على قوة في الأرض تبدل مواقفها بتبدل المصالح. وليس التوكل أن يهجر الإنسان الأسباب، بل أن يمنع الأسباب من التسلل إلى مقام الربوبية في قلبه؛ فيأخذ بها بيده، ولا يسجد لها بقلبه، ويستعملها طاعةً، ولا يعتقد أنها تستقل بنتيجة. لقد تعلم حاطب في أول السورة أن محاولة استجلاب الحماية من العدو بطريق لا يرضي الله ليست سبباً مشروعاً، ويأتي دعاء إبراهيم ليعيد بناء موضع الأمان في النفس: لست آمناً لأن لك عند فلان يداً، ولا لأنك أرسلت إلى القوم سراً، بل لأن أمرك في يد الله؛ فإن حفظك فلا غالب لحفظه، وإن ابتلاك فلن تدفع الابتلاء عنك حيلةً وُلدت من المعصية.

ثم قالوا: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، والإنابة رجوعٌ متكررٌ يحمل في طياته المحبة والخضوع. لم يقولوا: رجعنا إليك مرة وانتهى الأمر، بل جعلوا حياتهم كلها حركة عائدة إلى الله. فالقلب يتعد قليلاً تحت ضغط الخوف، ثم ينوب؛ ويثقل بغبار الدنيا، ثم ينوب؛ وتلبس عليه الجهات، ثم يجعل وجهه إلى الله وينوب. والمؤمن ليس من لا يضل عليه الطريق لحظة، بل من جعل في قلبه بوصلةً تعيده كلما مال؛ وليست النجاة أن تكون بلا ضعف، بل أن تعرف إلى من تهرب بضعفك. وما أجهل أن تأتي الإنابة بعد التوكل: فالتوكل اعتماد القلب على الله فيما يستقبل، والإنابة رجوعه إليه مما مضى، وبينهما تحفظ حياة المؤمن؛ لا يخاف المستقبل لأنه متوكل، ولا يهلكه الماضي لأنه منيب.

ثم يختم الدعاء بقوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فيضع النهاية أمام العين لتستقيم البداية. ما دام المصير إلى الله، فلماذا يطلب الإنسان رضا الناس بسخطه؟ وما دام اللقاء به حتمياً، فكيف يخون عهده لينجو من موقف عابر؟ إن كثيراً من الضعف ينشأ من قصر النظر؛ تتضخم اللحظة الحاضرة حتى تحجب الأبد، ويكبر الخطر القريب حتى يُنسي الحساب البعيد، فيأتي ذكر المصير فيعيد الأشياء إلى أحجامها. كل ما تخشاه سيمضي، وكل من ترجو رضاه سيغيب، وكل باب تخاف أن يغلق سيصبح يوماً جزءاً من ماضٍ بعيد، ثم تبقى واقفاً أمام الله، لا تحمل إلا قلبك وعملك. وعندها تعرف أن الموقف الذي بدا مكلفاً في الدنيا كان هو النجاة، وأن التنازل الذي بدا ذكياً كان خسارة لا تستحق.

ثم يفيض الدعاء بمعنى بالغ العمق: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ليس خوف المؤمن هنا على نفسه وحدها، بل على صورة الحق التي يحملها؛ يخشى أن يسلط عليه أهل الباطل فيظنوا أن تسلطهم دليلٌ على صحة طريقتهم، أو أن يضعف هو في موقفه فيصبح ضعفه حجةً يفتن بها الآخرون عن الإيمان، أو أن يسيء تمثيل دينه بأخلاقه فيرى الناس عيوبه فينسبونهم إلى الوحي. إنها مسؤوليةٌ مرهقةٌ وجميلةٌ: أن تدرك أنك حين تُعرف بالإيمان لا تعود أخطاءك محصورةً فيك؛ فقد يقف إنسانٌ بعيدٌ عن الدين أمام ظلمك أو كذبك أو فظاظتك، ثم يحسب أن هذا بعض ثمار عقيدتك، فتكون فتنةٌ له من حيث لم ترد.

وكم يحتاج المؤمن إلى هذا الدعاء في زمنٍ أصبحت فيه حياة الناس مكشوفة، وصارت كلمةٌ طائشة أو صورةٌ ظالمة أو معاملةٌ سيئة تعبر الآفاق في لحظات. ربنا لا تجعلنا ستاراً يحجب به جمال دينك، ولا حجةً يحتج بها المبطلون على وحيك، ولا نموذجاً منقراً ممن يرفعون اسمك ويخالفون أمرك. ربنا لا تجعل انتسابنا إلى الحق أكبر من نصيبنا منه، ولا تجعل ألسنتنا تدعو إليك وأعمالنا تصدّ عنك. إن من أشد الخذلان أن يظن الإنسان أنه يدافع عن الدين، بينما أسلوبه الجائر يجرح صورته في القلوب، أو أن يتكلم عن العدل وهو يظلم، وعن الرحمة وهو يقسو، وعن الأمانة وهو يخون. وليس معنى ذلك أن الحق يُقاس بأخطاء أتباعه، فالحق حق ولو قصر حملته، ولكن حامل الحق سيُسأل: هل كان نافذةً يرى الناس منها النور، أم جداراً قام بينهم وبينه؟

ثم قالوا: ﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾، فعادوا من خطر الآخرين إلى عيوب أنفسهم، ولم تحملهم البراءة من الباطل على الشعور بالطهارة المطلقة. وهذا فرق دقيق بين المؤمن الذي يتبرأ لله والمتعصب الذي يتبرأ لنفسه؛ فالمتعصب يرى الشر كله في خصمه، ويخرج من كل معركة أكثر إعجاباً بذاته، أما المؤمن فيواجه الباطل ثم يعود بقلبه إلى الله مستغفراً، لأنه يعرف أن ثباته فضل، وأن قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأنه لولا رحمة الله لربما كان في الصف الذي ينكره. إنه لا يتعالى على الضال، بل يمدح الله على الهداية، ولا يأمن على نفسه الفتنة، بل يسأل المغفرة، ولا يجعل صواب موقفه وثيقة براءة من عيوبه.

ويختتم الدعاء باسمين يملآن القلب توازناً: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فهو العزيز الذي لا يُغلب، ومن احتذى به لم يهن وإن بدا مستضعفاً، وهو الحكيم الذي يضع الابتلاء في موضعه، ويجعل وراء المنع عطاءً، ووراء الهجرة تمكيناً، ووراء الوحدة أمة. عزته تمنح القلب قوة، وحكمته تمنحه سكينه؛ فلو عرف العبد القوة بلا حكمة ربما اضطرب أمام ما لا يفهم، ولو عرف الحكمة بلا عزة ربما خاف أن يعجز التدبير عن بلوغ غايته، فإذا اجتمعتا علم أن الذي يدبر أمره لا يُغلب، وأن الذي لا يُغلب لا يفعل شيئاً عبثاً.

ثم تعود السورة فتؤكّد: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن تَوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. وتكرار الأسوة ليس تكرار لفظ بلا زيادة، بل تثبيت للمعنى بعد أن كشفت الآيات عمقه: الأسوة ليست في كلمة البراءة وحدها، بل في التوكل والإنابة والخوف من الفتنة والاستغفار، في الموقف الظاهر والقلب الباطن معاً. فقد يقدّر إنسان إبراهيم في شدة البراءة، ثم لا يقلده في رقة الدعاء، وقد يأخذ من سيرته مواجهة القوم، وينسى افتقاره إلى الله، وقد يرفع راية التوحيد وهو معجب بنفسه، بعيد عن قوله: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾. فجاء التكرار ليقول: إن الأسوة الحسنة كلّ متكامل، لا تقتطع منها الشدة ويترك التواضع، ولا يؤخذ منها الجهر بالحق وينسى البكاء بين يدي الله.

وجعل الانتفاع بهذه الأسوة مشروطاً برجاء الله واليوم الآخر؛ لأن الذي يرجو الناس لن يحتمل طريق إبراهيم، والذي يجعل الدنيا نهاية حسابه سيرى التضحيات خساراً، والذي يطلب السلامة العاجلة سيبيع وضوحه عند أول خوف. أما من يرجو الله، فإنه يقيس الموقف بمقدار قربته منه، ومن يرجو اليوم الآخر لا يخدعه ربح ينتهي عند القبر. والرجاء هنا ليس أمنيّة رخوة، بل قوة تعيد توجيه القلب؛ فمن رجا لقاء الله استعدّ له، ومن رجا ثوابه هان عليه ما يفوته من ثناء الخلق، ومن رجا جنته عرف أن الغربة في سبيله مرقصير إلى وطن لا فراق فيه.

ثم يقول: ﴿وَمَن تَوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. فمن أعرض عن هذه الأسوة، أو تولى عن أمر الله، أو ظن أنه بنصرته يمنح الدين قوة من عنده، فليعلم أن الله غني عنه. إن الله لا يأمرنا بالوفا لأنه محتاج إلى وفائنا، ولا ينهانا عن الخيانة لأن ملكه ينقص بها، بل نحن نحتاج إلى الطاعة كي تظل أرواحنا مستقيمة. وإذا خذل الإنسان الحق لم يخذل الله، بل خذل نفسه، وحرّمها شرف أن تكون في ركاب النور. وهو سبحانه ﴿الْحَمِيدُ﴾، محمود في ذاته وصفاته وأفعاله، حمده لا يصنعه المادحون ولا تنقصه ألسنة المعرضين، وإذا أطاعه الخلق جميعاً لم يزد ذلك في ملكه، وإذا عصوه جميعاً لم ينقص منه شيء، ولكن طاعتهم ترفعهم، ومعصيتهم تهوي بهم.

وفي اقتران الغني بالحمد معنى يملأ الروح حياة؛ فقد يكون الغني في عالم البشر مستغنياً لكنه لا يستحق المحبة، أما الله فهو الغني الذي تندفق نعمه على من عصاه، والحمد الذي لا يكلف عباده إلا بما يصلحهم، ولا يمنعهم إلا مما يفسدهم. فإذا طلب منهم أن يقدموه على الأهل، لم يكن يريد أن يحرمهم من الأهل، بل أن يطهرّ حبه من الذل والخيانة؛ وإذا نهاهم عن موالة المعتدي، لم يكن يغلق قلوبهم عن الرحمة، بل يهيئ الرحمة من أن تتحول إلى معبرٍ للعدوان. كل أمره نعمة متكررة أحياناً في صورة التكليف، وكل حدٍّ من حدوده سياج يحفظ في الإنسان أتمن ما لديه: قلبه الذي لا ينبغي أن يكون إلا لله.

بعد أن ارتفعت نبرة البراءة، ووقف القلب أمام أسوة إبراهيم عليه السلام يتعلم كيف يكون واضحاً في اتّماثه، ثابتاً في عهده، غير مستدرج بضغط القرابة ولا بتهديد القوة، فتح في جدار الخصومة فجأة كوة ينساب منها الرجاء: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وما أرحم هذا الانتقال، وما أدق هذا الميزان؛ فالسورة التي أمرت المؤمن ألا يلقى بالمودة إلى من حارب الله ورسوله، هي نفسها التي تقول له بعد قليل إن الله قادر على أن يجعل بينه وبين من عاداهم مودة. كأنها تريد أن تنزع من البراءة سمّ الحقد، ومن الحزم قسوة الانتقام، وأن تعلم المؤمن أن موقفه من الباطل لا يبيح له أن يغلق مستقبل الإنسان، ولا أن يتعامل مع عدو اليوم كأنه محكوم عليه أن يبقى عدواً إلى الأبد. فالقلوب ليست حجارة ثابتة على هيئة واحدة، والأيام ليست سجنًا يعجز الناس عن الخروج منه، والهداية قد تدخل من شقّ لم تره العيون، فإذا باليد التي امتدت بالأمس إلى المؤمنين بالسوء تمتد اليوم لتبائع على الإيمان، وإذا باللسان الذي آذاهم يصير لساناً يذبّ عن الحق، وإذا بالبيت الذي أخرجهم يعود مأوىً للتوحيد.

إن في كلمة ﴿عَسَى﴾ فسحة رحبة للروح؛ فهي لا تعد المؤمن بأن كل عدوّ سيصير ولياً، ولا تطلب منه أن يبني أمنه على أمنية غافلة؛ لكنها تمنعه أن يحبس الناس داخل ماضيهم. إنها تضع احتمال الرحمة إلى جوار ضرورة الحذر، فيبقى القلب مستعداً للهداية من غير أن يكون ساذجاً أمام العدوان، ويبقى الباب مفتوحاً للتوبة من غير أن تُرفع الحراسة عن الحق. وهذا من الجمال الذي تنفرد به التربية القرآنية؛ فلا هي تترك المؤمن مسترسلاً في عاطفته حتى يخترقه خصمه، ولا هي تسجنه في ذاكرة الجراح حتى يعجز عن قبول من تاب. وإنما تقول له: اتخذ موقفك اليوم بحسب الحقيقة القائمة اليوم، فإن حاربك قوم فاحذرهم ولا توالهم، وإن كفوا أيديهم وعدلوا أو آمنوا، فلا تجعل كراهية الأمس تحجب عنك حكم اليوم.

ومن أعظم أمراض الخصومة أن يتحول الموقف من مقاومة الظلم إلى عشق بقاء العدو ظالماً، لأن بعض النفوس تبني هويتها على العداوة، فإذا تبدل الخصم وراجع نفسه شعرت كأنها فقدت مبرر وجودها. أما القلب القرآني فإنه لا يريد للعدو أن يستمر في الضلال كي يستمر هو في الشعور بالتفوق، بل يتقن أن يهتدي، لأن غايته ليست الانتصار لذاته، بل انتصار الحق، وأكل انتصار الحق ليس أن يهلك خصمه دائماً، بل أن يتزعه من الباطل فيعيده إنساناً جديداً. ولذلك كان المؤمن يستطيع أن يقاتل المعتدي إذا قاتله، ثم يفرح من أعماقه إذا هداه الله؛ لأن سيفه لم يكن مشحوداً لحقه، بل لحماية العدل، ولأن عداؤه لم يكن متعلقاً بالدم والاسم والنسب، بل بالعدوان والكفر المحارب.

وما أوسع الفرق بين أن تبغض الإنسان، وأن تبغض ما استعبده من الباطل؛ فمن أبغض ذاته تمنى هلاكه ولو تغير، ومن أبغض باطله تمنى زوال الباطل عنه وبقائه هو في نور الله. ولهذا جاءت المودة هنا جزءاً تحوّل يمكن أن يقع بإذن الله؛ فالذي كان بينه وبين المؤمنين عداوة لم

تُحَ إِنْسانِيَّتِه، وإِنما حجبها موقفه، فإذا رفع الله الحجاب انكشفت إمكاناتُ لم تكن ترى تحت دخان المعركة. وكم من قلوبٍ وقفت طويلاً وراء متاريس العناد، ثم هدمتها آية في ليلة، وكم من رجالٍ دخلوا ميادين الحرب ليطفئوا نور الله، ثم خرجوا منها وهم يحملون ذلك النور إلى الآفاق. إن التاريخَ الإيماني لم يصنعه الذين ولدوا جميعاً في حضن الطاعة، بل صنعه أيضاً قلوبٌ انتزعت من أقصى العداوة، ثم غسلها الله بالمغفرة حتى صارت مناراتٍ للهداية.

وفي قوله: ﴿أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ إسنادهُ مباشرٌ إلى الله؛ فهو الذي يجعل المودة، لأن القلوب أرضه التي لا يملك مفاتيحها سواه. قد يملك الإنسان أن يقدم كلمة طيبة، وأن يرفع ظلماً، وأن يقيم حجةً، وأن يدعو بحكمة، لكنه لا يملك أن يخلق في القلب ميلاً، ولا أن ينزع منه ضغينة. وما دام الله هو الذي يجعل المودة، فلا ينبغي للمؤمن أن يطلبها بمعصيته، ولا أن يشتريها بتدوين عقيدته، ولا أن يمد يده إلى الحرام كي يصل إلى ثمرة لا تنبت إلا بأمر الله. إن حاطباً في مطلع السورة أراد أن يصنع لنفسه يداً عند قرش تحمي قرابته، فأوقفه الوحي؛ لأن المودة والحماية لا تلتصمان بخيانة الأمانة، ثم قالت السورة له ولكل من بعده: إن الذي تخشاه وتتمناه كلاهما بيد الله؛ هو قادر أن يجعل بينكم وبين من عاديتهم مودةً من غير أن تتنازلا عن شيءٍ من الحق.

كم يرهق الإنسان نفسه حين يحاول أن يصنع في قلوب الناس منزلته بيديه، فيجامل في موضع البيان، ويسكت في موضع الشهادة، وينقص من حقيقة نفسه كي يتسع له رضا الآخرين، ثم يكتشف أن قلباً واحداً لم يفتح له؛ لأن مفاتيح القلوب لم تكن في جيبه منذ البداية. ولو أنه صدق الله، وأحسن إلى الناس بالحق، وترك لله سرائرهم، لربما ساق الله إليه المودة من الطريق الذي ظنه مسدوداً. إن الذي يملك القلوب لا يحتاج منك أن تحون مبدأك لتصل إليها، بل يريد منك أن تكون أميناً، ثم يفتح منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء.

ويأتي التذييل بثلاثة أسماءٍ ومعانٍ تسند هذا الرجاء: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هو قديرٌ على أن يقلب العداوة مودةً، وأن يخرج من صخر الخصومة ماء الأخوة، وأن يعيد تشكيل النفوس التي استبعد الناس هدايتها. وهو غفور لما مضى إذا صحت التوبة، فلا يبقى التائب أسير سجنه القديم، ولا يذكره كلما اقترب بجرائمه السابقة ليطرده إلى اليأس. وهو رحيمٌ لا يكتفي بحمو الذنب، بل يملأ مكانه نوراً وقرباً ومودةً. وإذا اجتمعت القدرة بالمغفرة والرحمة، لم يبق لليأس موضع، فالذي نرجو منه تغيير القلوب قادر، والذي نرجو أن يحويه الماضي غفور، والذي نرجو أن يعيد وصل ما انقطع رحيم.

ولعل في تكرار الاسم الجليل: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إيقاظاً للقلب كي لا ينظر إلى التحول المرتقب بمعايير البشر وحدهم. الناس يقولون: كيف يتغير من بلغ في العداوة هذا المبلغ؟ وكيف تنقلب الجراح القديمة إلى مودة؟ وكيف يجلس بالأخوة من وقف بالأمس في خندق الحرب؟ فيأتي الجواب قبل أن يستكمل السؤال: الله قدير. ليست القضية حساباً لاحتمالات النفس كما تعرفها، بل فعلاً من أفعال من يقول للشيء كن فيكون. ثم إن

العداوة حين نزول تحتاج إلى مغفرةٍ تحو آثارها، وإلى رحمةٍ تضمّد الجروح التي خلّفتها، فكأن
الأسماء الثلاثة ترسم الطريق كاملاً: القدرة تقلب القلب، والمغفرة تنظف الماضي، والرحمة تبني
المستقبل.

ثم تأتي الآياتان اللتان تضبطان عري العلاقة بالآخر ضبطاً لا يدع مجالاً للغلو ولا للتفريط: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون. وهنا تظهر هندسة السورة الأخلاقية في أبهى صورها؛ فبعد الحديث عن العدو والبراءة والعداوة والبغضاء، كان يمكن لنفس متعجلة أن توسع دائرة الحكم حتى تشمل كل مخالف، فجاء القرآن يرسم الحدود: ليس كل من خالفك في الدين محارباً، وليس كل من لم يؤمن بما تؤمن به مستحقاً للجفاء أو الظلم، وليس الاختلاف وحده علةً تمنع البر والعدل. إنما يتغير الحكم حين يتحول الاختلاف إلى قتال، والمخالفة إلى إخراج، والموقف الفكري إلى تظاهرٍ على اضطهاد المؤمنين.

إن هذه التفرقة ليست تفصيلاً هامشياً، بل هي قلب العدل القرآني. فالنفوس إذا جُرحت تميل إلى التعميم؛ يسيء إليها بعض الناس فتحاتم جماعتهم كلها، ويقالها فريق فتضع كل من يشترك معه في الاسم داخل صورة العدو، ثم تستريح من عناء التمييز، لأن الكراهية أسهل حين تكون عمياء. أما القرآن فلا يسمح للمؤمن أن يستريح إلى الظلم، ويكلفه أن يفتح عينيه في أشد أوقات الألم، وأن يميز بين من رفع عليه السلاح ومن مد إليه يد السلام، وبين من أخرجه من داره ومن عاش إلى جواره محافظاً على عهده، وبين من شارك في العدوان ومن رفضه أو اعتزله. فالحق لا يكتسب شرفه من وضوحه النظري وحده، بل من قدرته على منع صاحبه من أن يظلم خصمه.

ولم تقل الآية: لا ينهاكم الله أن تتجنبوا أذاهم، أو أن تتركوهم وشأنهم، بل ارتفعت بالعلاقة إلى مقام البر: ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾. والبر كلمة واسعة دافئة، هي من الكلمات التي يرتبط بها في الوجدان برُّ الوالدين، وتحمل معنى الإحسان والوفاء واللطف والصلة. فلم يكتف القرآن بأن يرخص للمؤمن في معاملة غير المحارب معاملةً باردةً خاليةً من الأذى، بل فتح أمامه باب الإحسان؛ أن يزور مريضه، ويغيث ملهوفه، ويحفظ جواره، ويصدق معه، ويؤدي إليه حقه، ويقطعه إن جاع، ويحميه إن ظلم، ويجعل من أخلاقه نافذةً يرى منها معنى العبودية لله. فالإيمان لا يصنع من الإنسان روحاً منغلقةً لا تعرف الخير إلا داخل جماعتها، بل يجعله مصدر خير لكل من لم يرفع يده بالعدوان.

والبر لا يعني أن تساوى العقائد في قلب المؤمن، ولا أن يتنازل عن يقينه بأن ما جاء به الوحي حق، بل يعني أن الاختلاف في الاعتقاد لا يسلب الآخر حقه في الإحسان والكرامة الإنسانية. يستطيع المؤمن أن يعتقد بطلان ما عليه غيره، وأن يدعو إلى الحق، وأن يظل في الوقت نفسه وفياءً، لطيفاً، عادلاً، جميل المعاملة؛ إذ لا تناقض بين وضوح العقيدة ونبل الخلق إلا في نفوسٍ لم نتعلم كيف تحمل الحقيقة برحمة. بل لعل البر الصادق أبلغ في الدعوة من كثير

من الكلام؛ فالناس قد يجادلون الفكرة طويلاً، لكنهم حين يرون أثرها عدلاً ورحمةً وأمانةً في إنسان، يرون برهاناً يمشي على الأرض.

ثم أضافت الآية: ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، لأن البرّ وحده قد يخضع للميل الشخصي، أما القسط فهو ميزان الحقوق الذي يجب أن يستقيم حتى مع من لا نجه. قد تبرّ إنساناً لأنك ترتاح إليه، لكن العدل يطالبك بما هو أشق: أن تعطي الحق لمن تنفر منه نفسك، وأن تشهد له بما له ولو خالفك، وأن تشهد عليه بما عليه من غير زيادة، وأن تمنح الخصومة من أن تغير الأرقام والأسماء والوقائع في ذهنك. والقرآن لا يريد للمؤمن أن يكون عادلاً مع من يشبهه فقط، فهذا عدلٌ لم يمتحن بعد؛ وإنما يظهر صدق العدل حين يقف أمام المختلف، ويكون قادراً على ظلمه ثم يردّه خوف الله إلى القسط.

وتأمل قوله: ﴿تَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، فكأن العدل شيءٌ يتجه نحوهم كاملاً، لا منقوصاً، ولا مشوّباً بمنة. ليس مجرد امتناع عن الاعتداء، بل إيصال الحق إلى صاحبه. وقد يظن الإنسان أنه عادل لأنه لم يسلب غيره، بينما يكون قد حجب عنه حقاً، أو شوه سمعته، أو نقل عنه ما لم يقل، أو حمّله جريمة غيره، أو فرح بظلم وقع عليه لأنه مختلف. فجاء لفظ القسط ليطالب بعملٍ إيجابي: أن تستقيم الكفة، وأن يعود الحق إلى موضعه، وأن يرى الإنسان بما فيه، لا بما صنعه الخوف أو الغضب من صورته.

ثم ترتفع الآية بالقسط من مجرد واجب قانوني إلى منزلة المحبة الإلهية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. يا لها من غاية تذيب أهواء النفس؛ فالمؤمن حين يعدل مع المخالف لا يفعل ذلك لأنه يطلب ثناءه، ولا لأنه يخفف من وضوح انتماؤه، بل لأنه يريد أن يحبه الله. وقد يكون في قلبه ألمٌ عظيم، وفي ذاكرته جرحٌ لم يبرأ، لكنه يضع الميزان في موضعه لأن عيناً أعلى تنظر إليه، ولأن محبة الله أثمن عنده من لذة الانتقام. وحين يعرف الإنسان أن الله يحبه في لحظة العدل، تصبح تلك اللحظة قريباً وعبادةً، ويغدو كبح الغضب سجدةً باطنةً لا يراها الناس.

وهكذا تحرر السورة مفهوم الولاء والبراء من صورتين مشوهتين: صورة تذيب العقيدة في مجاملات رخوة حتى لا يبقى للحق حد ولا للانتماء معنى، وصورة تجعل البراءة ذريعةً للفظاظية والظلم واحتقار الإنسان. فالولاء لله ليس عداوةً عمياء للعالم، والبراءة من الباطل ليست براءة من مكارم الأخلاق، بل إن أوثق الناس ولائاً لله ينبغي أن يكون أصدقهم عدلاً؛ لأنه لا يعامل الناس وفق اضطراب هواه، وإنما وفق أمر ربه. والمؤمن الذي يظلم مخالفه لم ينصر العقيدة، بل خالفها وهو يزعم الدفاع عنها، وأعطى الباطل فرصةً أن يقف في ثوب المظلوم.

ثمّ تقيم السورة الحدّ المقابل بوضوح لا غموض فيه: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ﴾. فهناك قتال موجه إلى الدين، وإخراج من الديار، وتعاون على الاضطهاد؛ وهذه ليست مجرد اختلافات ثقافية أو مسافات نفسية، بل عدوان كامل الأركان. ومع هؤلاء لا يكون إلقاء المودة برأ، ولا كشف الأسرار تسامحاً، ولا معاونتهم على المؤمنين انفتاحاً؛ لأن الكلمات الجميلة لا تغبّر حقائق الأفعال. ومن أخطر الخداع الأخلاقي أن يعاد تسمية الخيانة حكمةً، والضعف سلاماً، وتمكين المعتدي من الضحية حياداً. القرآن ينزع هذه الأقنعة، ويقول إن البر شيء، والتولي شيء آخر؛ البر إحسان لا يهدم الحق، أما التولي فهو اصطفاً وانحياز ومعونة واتصال يجعل صاحبه جزءاً من قوة المعتدي.

وقد رتبت الآية وجوه العدوان: ﴿قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، فاستهدفوا حرية إيمانكم ووجودكم العقدي، ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾، فحولوا الاختلاف إلى اقتلاع للإنسان من أرضه وبيته، ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾، أي عاونوا وساندوا ووقفوا خلف الجريمة وإن لم يباشروها بأيديهم. وهنا يقرر القرآن أن المسؤولية لا تنحصر في اليد التي تضرب، بل تشمل اليد التي تمدّها بالسلاح، والصوت الذي يبررها، والقوة التي تحميها، والمال الذي يمولها، والموقف الذي يمنحها ظهراً. فالظاهر على الظلم شريك في بنيانه، ولو وقف بعيداً عن مشهد الدم؛ لأن الجرائم الكبرى لا تقوم بسيف الجلاد وحده، بل بشبكة من المسوّغين والممولين والصامتين الراضين.

ومن بديع المقابلة أن الآية الأولى قالت: ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ... وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ﴾، فجعلت عدم القتال وعدم الإخراج أساساً لباب البر والقسط، ثم قالت الثانية: ﴿قَاتَلُوكُمْ... وَأَخْرَجُوكُمْ... وَظَاهَرُوا﴾، فجعلت العدوان أساساً للنهي عن التولي. كأن السورة تضع أمام المؤمن ميزان الوقائع، لا ميزان الأوهام؛ فلا تُنشئ خصومتك من مجرد الاسم، ولا تمنح أمانك لمجرد الكلام، بل انظر إلى الموقف: أمنٌ وسلامٌ واحترام للعهد، فبر وقسط؛ قتالٌ وإخراجٌ ومعاونة على الظلم، فخذر وامتناع عن الولاء. وبذلك يتحول التعامل من رد فعل عاطفي إلى بصيرة أخلاقية، فلا يندفع القلب إلى الكراهية بلا سبب، ولا ينأى في حضيض الخطر بعد ظهور سببه.

ثم تختم الآية بقول يهزّ من يحاول تبرير الولاء للمعتدي: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. لم يقل: المخطئون فحسب، بل ﴿الظَّالِمُونَ﴾؛ لأنهم وضعوا المودة والنصرة في غير موضعهما، وظلموا جماعة المؤمنين حين مكّنوا عدوها منها، وظلموا الحق حين ساووا بين المعتدي والمعتدى عليه، وظلموا أنفسهم حين أخرجوها من حماية الولاء لله إلى ذل الارتهان لمن لا يريد بهم خيراً. فالظلم في جوهره وضع الشيء في غير مكانه، وأي وضع أشد اضطراباً من أن يمنح الإنسان ثقته لمن يقاتله بسبب إيمانه، وأن يحبس برّه عن من سلمه لمجرد أنه مختلف؟

بهاتين الآيتين تبلغ السورة مقاماً أخلاقياً شاهقاً؛ إذ تأمر المؤمن أن يحمل في قلب واحد وضوحاً لا يبيح، ورحمة لا تجف، وعدلاً لا يميل، وحذراً لا يطفئ. عليه أن يعرف من يقاتله

حقاً، لا من صوره له غضبه عدواً، وأن يعرف من يسلمه حقاً، لا من تستره عبارات السلام وهو يظهر على إنجراجه. عليه أن يبر المسالم لأن الله يحب البر، وأن يقسط إليه لأن الله يحب المقسطين، وأن يمتنع عن ولاية المعتدي لأن الله يكره الظلم. وبين هذه المقامات يمتحن القلب: أيستطيع أن يكون شديداً حيث تجب الشدة، ليناً حيث يحسن اللين، عادلاً في الحالين، خالصاً لله في كل ذلك؟

وهنا نكتشف أن سورة الممتحنة لا تسألنا فقط: من تحبون؟ بل تسأل سؤالاً أعمق: من الذي يحدد طريقة حبكم وبغضكم؟ أهو الجرح الشخصي، أم العصبية، أم الخوف، أم الله؟ فقد يحب الإنسان من لا يجوز أن يمنحه ولاءه، وقد يبغض من أوجب الله عليه أن يعدل معه، وقد يخلط بين سلامة العقيدة وقسوة الطبع، أو بين حسن الخلق وضياع الحدود. أما القلب الممتحن بنور الوحي فيعيد كل عاطفة إلى محراب العبودية، فيقول: سأحب حيث يحب الله، وأبرّ حيث أمر، وأعدل ولو خالفتني نفسي، وأحذر حيث ظهر العدوان، ولن أجعل هواي رباً خفياً يوزع الناس في قلبي كما يشاء.

بعد أن فرغت السورة من ضبط العلاقات بين المؤمنين ومن خالفهم، ومن رسم الحدود الدقيقة بين البر والولاية، وبين العدل والتفريط، انتقلت إلى مشهد إنساني بالغ الرهافة، نتقدم فيه المرأة المؤمنة خارجة من بيتها وبيتها وصلاتها القديمة، مهاجرة إلى الله ورسوله، لا تحمل في يدها سيفاً، ولكنها تحمل في قلبها قراراً قد يكون أثقل من السيوف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَاتَّوهُمَ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

إنها صورة تستحق أن يُبسط القلب عندها طويلاً: امرأة خرجت من مكة، ووراءها زوج أو أهل أو عشيرة، وأمامها طريق موحش ومدينة لم تألفها، وفي داخلها إيمان لا يراه إلا الله. ربما مشت وهي تعلم أن خطوتها هذه ستغير اسمها في دفاتر قومها، وأنها لن تعود تلك الابنة التي ينتظرونها ولا الزوجة التي يملكون ردها إلى بيتها، وأن الطريق قد ينتهي بها إلى حياة جديدة لا تعرف تفاصيلها. ومع ذلك غلب نداء الله كل نداء، فهاجرت. وليست المهجرة هنا انتقلاً من مكان إلى مكان، بل ولادة ثانية للروح؛ إذ تخرج المرأة من شبكة كاملة من التعريفات التي صاغها المجتمع لها، لتقول بقرارها الصامت إن حقيقتها الأولى ليست ما يريده منها قومها، بل ما اختاره قلبها لله.

ومن جمال التعبير القرآني أنه سَمَّاهُنَّ «الْمُؤْمِنَاتُ» قبل أن يأمر بامتحانهن، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ﴾، فكان الاسم يحتضنهن قبل أن تستكمل الجماعة إجراءات التثبت، ويمنحهن كرامة الانتماء إلى الإيمان من أول لحظة. ثم جاء الأمر: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، لأن المجتمع المؤمن لا يبيّن أحكامه العامة على الظنون وحدها، ولا يكفي في بعض المواقف أن يعلن الادعاء ما دامت وراءه حقوق وعقود وأثار تتعلق بالآخرين. إن حسن الظن خلق، لكنه لا يلغي التثبت، والرحمة واجب، لكنها لا تهدم النظام، والإيمان الذي في القلب سر بين العبد وربّه، إلا أن الأحكام الدنيوية لا بدّ لها من أمارات ظاهرة تبين عليها.

ومع ذلك، ما إن جاء الأمر بالامتحان حتى وُضع له سقف يمنع البشر من الاستطالة على السرائر: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾. امتحنوهن بما تستطيعون، واسألوهن عن سبب خروجهن، واستظهروا صدق القصد بما يظهر لكم، لكن لا تنوهما أنكم ملكتم قلوبهن، ولا أن أسئلتكم اخترقت المحجب التي بين الروح وربّها. أتمّ تعلون ظاهراً تقوم به أحكام الدنيا، والله وحده يعلم حقيقة الإيمان ومقداره ونقاؤه. وهذه الجملة القصيرة تهذب القضاء البشري كله، فالإنسان مأمور أن يتحرى، لكنه منهي أن يدّعي علم الغيب، ومأمور أن يحكم بالبينات، لكنه منهي أن يجعل حكمه الظاهر حكماً نهائياً على المصائر.

كم من إنسان تحدّث عن قلوب الآخرين كأنه دخلها، فقياس صدقهم بمدى موافقتهم له، وجعل نفسه بوابة للإيمان، من عبر من رضاه أثبت له الإخلاص، ومن خالف هواه اتهم نيته. أما القرآن فيقول للجماعة المؤمنة وهي تتولى امتحان مهاجرات ترتبط بهن أحكام خطيرة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾. فإذا كان خير القرون قد ذُكر بهذا الحد، فكيف بمن بعدهم؟ إننا نملك أن نقول: ظهر لنا من العمل كذا، وثبت عندنا من القول كذا، ولكن القلب أرض محرمة على أحكامنا المطلقة؛ يراها الله، ويعلم أي كلمة خرجت منها صادقة، وأي صمت كان عبادة، وأي خطوة صغيرة حملت من الإخلاص ما لا تحمله أعمال ضخمة تبالأ أمام الناس.

ثم يأتي الحكم الذي يضمّ المهاجرات إلى حماية المجتمع الجديد: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾. لم يقل: فاستقبلوهن فقط، بل نهى عن إرجاعهن، لأنّ يدا قد تمتد لاسترداد المرأة بوصفها جزءاً من ملك العائلة أو الزوج أو القبيلة، بخفاء الوحي ليقول: إن هذه الروح التي اختارت ربها لا تُسلم إلى من يفتنها عن دينها. لقد أصبحت الجماعة المؤمنة مسؤولة عن حمايتها، ولم يعد يجوز أن تترك وحيدة في الطريق بعد أن دفعت ثمن الهجرة. فما قيمة مجتمع الإيمان إن كان يستقبل الأقوياء ويعيد المستضعفين إلى جلا ديمهم؟ وما معنى الأخوة إن لم تصبح أماناً لمن خسر أمانه القديم في سبيل الله؟

في قوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ حزم يوازي هشاشة المشهد؛ ربما كانت المرأة بلا عشيرة تدافع عنها في المدينة، وربما كانت محاصرة بمطالبات قبلية وعهود سياسية ومصالح متشابكة، لكن الله جعل إيمانها سبباً كافياً لأن تقف الأمة خلفها. إنها ليست ورقة في تفاوض، ولا متاعاً يُعاد، ولا تابعاً لا يملك اختيار مصيره، بل مؤمنة مهاجرة خاطب الله الجماعة بشأنها، ووضع حمايتها داخل حدود الطاعة. وحين يذكر القرآن قصة المرأة بهذه العناية، فإنه يهدم في النفس كل تصور يستخف برحلتها إلى الله؛ فقد تكون هجرتها صامته، لكن السماء تسمع وقعها، وقد تكون وحيدة في الطريق، لكن الوحي ينزل ليصون قرارها.

وما أكثر النساء اللواتي يعيشن هجرة لا يراها أحد؛ امرأة تهجر عادةً توارثها بيتها لأنها عرفت أنها لا ترضي الله، وامرأة تتحمل وحشة الاستقامة في محيط يسخر منها، وامرأة ترفض أن تجعل رضا الناس فوق رضا ربها، وامرأة تغادر ماضياً كاملاً من الغفلة إلى نور الطاعة، ولا يصفق لها أحد. كل أولئك هن من معنى الهجرة نصيب؛ فليست طرق الهجرة كلها رمالاً وبلداناً، بل قد تكون المسافة بين ذنب وتوبة، وبين خوف من الناس وثقة بالله، وبين حياة تُفرض على الروح وحياة تختارها الروح في طاعة خالقها. والله الذي رأى أولئك المهاجرات وستأهن مؤمنات يرى كل خطوة خفية تخرج بها النفس من ظلمة إلى نور.

ثم يقرر الوحي انقطاع الرابطة الزوجية التي لم يعد اختلاف العقيدة يسمح باستمرارها: ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحْلُونَ لَهُنَّ﴾. وفي التكرار تؤكد يغلق الباب من الجهتين؛ فلا المرأة المؤمنة تحل للرجل الكافر، ولا الرجل الكافر يحل لها. ولعل في هذا التركيب ردًا على النظرة التي تجعل الحكم متعلقًا بالمرأة وحدها، كأنها هي موضوع الحل والحرمة، فجاء التعبير متوازنًا: ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحْلُونَ لَهُنَّ﴾. كلا الطرفين داخل الحكم، لكن رابطة الإيمان قد أعادت رسم حدود العلاقة.

والزواج في القرآن ليس اجتماع جسدين تحت سقف، بل سكنٌ ومودةٌ ورحمةٌ وميثاقٌ غليظ، وحين تكون وجهة الروح في أقصى التباعد عن وجهة الطرف الآخر، ويكون أحدهما قد هاجر بدينه من بيئة يقيم الآخر على عقيدتها، يصبح البيت معرضًا لأن يتحول من سكنٍ إلى فتنة، ومن موضع أمانٍ إلى ميدان ضغطٍ على الإيمان. ولهذا لم ينظر القرآن إلى الماضي العاطفي وحده، ولا إلى الذكريات التي ربما كانت بين الزوجين، بل نظر إلى الحقيقة الجديدة التي أحدثها الإيمان والهجرة. إن بعض الروابط تكون عزيزة، لكنها لا تستطيع الصمود إذا هدمت الأساس الذي تقوم عليه، وبعض الفراق مؤلم، لكنه يصبح ضرورةً لحماية أعمق ما في الإنسان. ولا يعني ذلك أن الذكريات انطفأت في لحظة، ولا أن قلب المرأة المهاجرة تحول جبراً حين عبرت إلى المدينة؛ فقد يكون وراءها بيت عرف ضحكتها، وزوج عاشرته زمناً، وأيام لا تمحى بمجرد عبور الطريق. ولكن الامتحان لا يكون امتحاناً إذا لم تتعارض فيه قيمتان عزيزتان؛ إنما تظهر منزلة الإيمان حين يطلب من صاحبه أن يقدمه على شيءٍ يحبه حقاً، لا على شيءٍ زهد فيه من قبل. ولو كانت الهجرة خروجاً من علاقات مكروهة فحسب لكان أمرها، لكن عظمتها تنشأ من أن المؤمن قد يترك محبوباً لأن البقاء معه يهدد محبوباً أعظم.

وفي هذا الموضع تكشف حقيقة مؤلمة ونبيلة: ليس كل فراق خيانةً للحب، فقد يكون بعض الفراق وفاءً لله، وحمايةً للجوهر الذي يمنح الحب نفسه معناه. وليس كل تمسكٍ بالعلاقة وفاءً، فقد يتحول التمسك إلى خوف من الوحدة، أو مجزٍ عن دفع الثمن، أو تقديم المخلوق على الخالق. إن القرآن لا يستخف بالألم الإنساني، لكنه لا يسمح للألم أن يصبح مشرعاً، يسمع بكاء القلب، ثم يأخذ بيده إلى ما ينجيه، لأن الرحمة ليست دائماً أن يُبقي الله لنا ما نحب، بل قد تكون أن ينزعنا مما نحب قبل أن ينزع ذلك الحب إيماننا.

ومع انقطاع رابطة الزواج لم يسقط الحق المالي، فقال سبحانه: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَتَفَقَوْا﴾. يا لجلال هذا العدل؛ قوم حاربوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم، ومع ذلك لم يبح لهم أن يأكلوا أموالهم بغير حق. إذا هاجرت المرأة المؤمنة وانفسخ النكاح، أُعيد إلى الزوج ما دفع من مهر بحسب الحكم المنظم للعلاقة يومئذ، فلا تتحول الخصومة العقدية والسياسية إلى ذريعة لمصادرة الحقوق. إن القرآن يريد من المؤمن أن يكون عادلاً لا حين يكون العدل سهلاً فقط، بل حين يقف أمام من آذاه، ويستطيع أن يقول: هذا حقه، فأدّوه إليه.

هنا يُمتحن صدق الانتماء إلى الله؛ فالتاس جميعاً يتحدّثون عن العدل حين يخدمهم، لكن العدل لا يظهر بصفائه إلا حين يأمرهم أن يدفعوا حقاً لمن يخاصمونه. وإذا سقط الحق لمجرد أن صاحبه عدو، لم يعد في الأرض ميزان، لأن كل جماعة ستسمي خصمها بما يبيع لها ماله وكرامته. فجاء حكم الله فوق حرارة الصراع، وأبقى الحساب المالي نقيّاً من الانتقام. فالخصومة لا تجعل مال الآخر غنيمةً بلا حكم، والكفر لا يبيح للمؤمن أن يخون عهده، والعدوان الذي ارتكبه الخصم لا يمنحك إذناً مفتوحاً أن ترتكب ما شئت.

ثم يقول: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكْحُوهَنَّ إِذَا اتَّيَمُّوهَنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فيفتح للمهاجرات باب الحياة الجديدة، فلا يبقين أسيرات علاقة انقطعت، ولا معلقات في هامش المجتمع، ولا محاطات بنظرة تجعل ماضيهن عاراً. لقد هاجرن مؤمنات، ولهن أن يبدأن بيتاً جديداً في مجتمع الإيمان، لكن حقوقهن لا تذوب تحت عنوان التضحية؛ فلا بد من إيتائهن مهرهن. حتى المرأة التي تركت كل شيء لله لا يقال لها: يكفيك شرف الهجرة فتنازلي عن حقوقك، بل يثبت القرآن حقها المالي وهي في أعلى مقامات البذل.

وفي التعبير عن المهور بالأجور هنا دلالة على الحق الواجب الذي لا ينبغي التهاون في أدائه، لا على معنى بيع المرأة أو شراء علاقتها؛ فالزواج ميثاق، والمهر تكريم والتزام، وإشارة إلى أن بدء الحياة الجديدة لا يقوم على استغلال ضعف المهاجرة. لقد وصلت بلا سندها القديم، وربما بلا مال، فكان من السهل على النفوس المريضة أن تجعل حاجتها باباً لهضم حقها، لكن القرآن سبق كل استغلال محتمل فقال: ﴿إِذَا اتَّيَمُّوهَنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. لا تبين الأسرة المؤمنة على منة الرجل، بل على عقدٍ معلومٍ وحقٍّ مؤدّى وكرامةٍ محفوظة.

ثم يتوجه الخطاب إلى المؤمنين الذين بقيت لهم زوجاتٌ على الكفر: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾. والعِصم جمع عصمة، وهي ما يعتصم به ويشد، فكان رابطة الزوجية حبل يربط بين روحين، يمسك كل منهما بطرفه. لكن الحبل الذي كان مشروعاً في حال سابقة لم يعد يجوز الإمساك به بعد نزول الحكم وتمليز المجتمعين. ويعبر القرآن عن الفراق هنا بالإمساك والإفلات؛ لأن النفس بطبيعتها تمسك بما ألفت، حتى بعد أن تتغير الحقيقة التي كانت تمنحه المشروعية. وقد يعرف الإنسان أن مرحلة انتهت، لكنه يظل ممسكاً بصورة الماضي، خائفاً من الفراغ الذي سيتركه الحبل إذا أفلت.

وما أصعب أن يؤمر القلب ألا يمسك؛ لأن اليد قد تترك قبل أن يترك القلب، والقلب قد يظل متعلقاً ببيتٍ ووجهٍ وأيام. لكن الإيمان لا يقيس الحق بقدر الألم الذي يسببه، ولا يجعل المشقة دليلاً على بطلان التكليف. قد يكون حكم الله موجعاً في لحظته، لأنه يقطع رابطة عميقة، لكن علم الله يرى ما وراء اللحظة، يرى ما ستصنعه العلاقة المختلة من ضغطٍ على العقيدة، وما قد ينشأ في البيت من صراع الانتماءات، وما يتخفى تحت التعلق من ضعفٍ لا يشعر به صاحبه. وحين يأمر الله بالإفلات، فقد يكون الحبل الذي نبكي عليه هو نفسه الذي كان سيجرنا بعيداً عنه.

ومع ذلك يعود العدل المالي مرةً أخرى: ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا﴾. للمؤمنين أن يطالبوا بما دفعوا إذا ذهبت زوجاتهم إلى الكفار، وللطرف الآخر أن يطالب بما دفع إذا هاجرت زوجاتهم المؤمنات. لا محاباة في الحساب، ولا يقرر القرآن حقاً لجانبٍ ويهمل نظيره عند الجانب الآخر. فالعدل لا يخشى التناظر، والحكم الإلهي لا يحتاج إلى كيلين؛ ميزان واحد يزن مال المؤمن ومال غير المؤمن، لأن الأموال والحقوق لا تتغير حقيقتها بتغير أسماء أصحابها.

واللافت أن الآية تقيم هذا العدل في بيئة حرب وهجرة وقطيعة عقديّة، حيث تكون النفوس في أعلى درجات التوتر. ولو كان الدين انعكاساً للغضب البشري لجاء الحكم انتقاماً، لكنه وحي من العليم الحكيم، ولذلك ظل الحق واضحاً وسط غبار الصراع. إن المجتمع المؤمن لا يبرهن على ربايته بكثرة شعاراته، بل بقدرته على إبقاء الميزان قائماً حين تدعوه الجراح إلى إسقاطه. وكلما اشتدت الخصومة ازدادت الحاجة إلى حكم يأتي من فوق النفوس، لأن النفس المجروحة بارعةٌ في تسمية ظلمها عدلاً.

بعد هذه التفاصيل المتشابكة، يأتي الإعلان الذي يردّها كلها إلى مصدرها: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾. ليست هذه التسويات وليدة مزاج اجتماعي، ولا استجابة مؤقتة لموازن القوى، ولا اجتهداً قليلاً يمكن للأقوى أن يعدله لمصلحته؛ إنه حكم الله. وحين يكون الحكم لله، فإن المؤمن يتلقاه بقلب العبودية قبل أن يتلقاه بعقل المصلحة، ويعلم أن ما خفيت عنه حكمته لم يخرج عن حكمة الله، وأن ما شق على نفسه لم يخرج عن رحمته. ليس معنى ذلك إغلاق باب الفهم، بل تحرير الفهم من اشتراط أن يحيط بكل شيء قبل الطاعة.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يحمل ظلالاً من الطمأنينة؛ فالناس إذا تركوا لأهوائهم حكم كل طرف لنفسه، ورأى حقه وادّعى وحق خصمه باهتاً، ودون الآله ونسي الآم الآخرين. أما الله فيحكم بينهم جميعاً؛ يرى المرأة التي هاجرت، والزوج الذي دفع المال، والمؤمن الذي انقطعت علاقته، والكافر الذي بقي له حق مالي، ويرى المجتمع الذي يحتاج إلى الحماية، والفرد الذي يحتاج إلى الإنصاف. حكمه لا ينسى طرفاً لأن صوته ضعيف، ولا يرفع طرفاً لأن رايته أقوى، فهو حكم صادر من لا تضيق رؤيته بتعقيد المشهد.

ثم تختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فهو عليم بإيمان المهاجرات الذي لا يحيط به المتحنون، عليم بالدوافع المتشابكة، وبما في استمرار العلاقات من فتنة، وبما في إنهاؤها من ألم، وبما دفعه كل طرف وما استحققه. وهو حكيم في الحد الذي رسمه، وفي الحق الذي حفظه، وفي البيت الذي أنهى عقده، وفي البيت الجديد الذي أباح إنشاءه. وما أعظم حاجتنا إلى أن نقرأ أحكام الله تحت نور هذين الاسمين؛ فليست أحكامه صادرة عن علم ناقص يرى جانباً ويغيب عنه آخر، ولا عن قدرة مجردة من الحكمة، بل عن علم يحيط بكل خفقة في القلب، وحكمة تضع كل روج وكل حق في موضعه.

ثم تعالج السورة حالةً قد يضيع فيها بعض ما دفعه المؤمنون، فتقول: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. إن النظام العادل لا يكتفي بإعلان القواعد في صورتها المثالية، بل ينظر إلى الخلل حين يقع، وإلى الإنسان الذي ضاع حقه لأن الطرف المقابل لم يلتزم بالتسوية. فإذا ذهبت زوجة المؤمن إلى الكفار، وتعذر رد ما أنفقه، ثم حصل للمؤمنين من الجهة الأخرى مالٌ مستحق، أعطي من فاته حقه مثل ما أنفق. وهكذا لا يُترك الفرد يحمل وحده خسارة نشأت من صراع عام، بل تتحمل الجماعة مسؤولية إعادة التوازن.

وفي قوله: ﴿فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ تعبيرٌ يختصر المأ إنسانياً كبيراً في لفظ «فاتكم». والفوات ليس مجرد حركة جغرافية، بل انقطاع حياة كانت مشتركة، وانهدام صورة للمستقبل، وشعور بأن شيئاً كان قريباً خرج من اليد. ومع ذلك لم يسم المرأة «شيئاً» في ذاتها، وإنما جاء التعبير عما فات من شأن الأزواج أو الحقوق المتعلقة بهن في سياق الحكم، فلا يجوز أن يتزعزع اللفظ من نظمه ليحمل ما لا يحتمل. فالقرآن الذي سمي المهاجرات مؤمنات، وحى قرارهن، ومنع إعادتهن، وأثبت مهورهن، لا يحولن في الآية التالية إلى متاع، وإنما ينظم أثر الفوات المالي والاجتماعي بلغة التشريع الدقيقة.

والقرآن هنا لا ينكر ألم الرجل الذي ذهبت زوجته، كما لم ينكر قبل ذلك محنة المرأة التي تركت زوجها، بل يعالج الواقع من غير أن يحول الألم إلى فوضى. إن المشاعر مهما عظمت لا يجوز أن تأكل الحقوق، والفقد مهما أوجع لا يبيح الانتقام الأعمى. ولذلك لم يقل للمؤمن الذي فاتته زوجته: خذ ما شئت ممن شئت، بل حدد له: ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾. لا زيادة تُشبع الغضب، ولا عقوبة مالية تتجاوز الحق، وإنما مثل ما أنفق. فحتى التعويض تحرسه المماثلة، وحتى في لحظة الفقد يقف الميزان.

ثم يختم الحكم ببناء التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. وما أبلغ وصل التقوى بالإيمان هنا؛ فالذي تؤمنون به هو الذي يجب أن تتقوه، وإلا بقي الإيمان معلومة لا سلطان لها على الحساب والخصومة والمال. قد يقول الإنسان إنه يؤمن بالله، ثم إذا ضاع منه حق نسي كل الحدود، واستباح أن يأخذ فوق حقه، وكأن الله موجود في المسجد غائب عن موضع النزاع. فجاءت الآية لترد الإيمان إلى ساحة المعاملة: اتقوا الله عند التعويض، واتقوه حين تكونون قادرين على الزيادة، واتقوه في أموال من تخالفونهم، واتقوه حين تؤلمكم الخسارة، لأن صدق الإيمان لا يعرف فقط عند هدوء النفس، بل حين تكون للنفس حجة قوية تدعوها إلى التجاوز ثم يمنعها الله.

ولم يقل: واتقوا الله الذي تؤمنون به، بل قال: ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، فكأن الصياغة تضعهم أمام شهادتهم على أنفسهم: أنتم تقولون إنكم به مؤمنون، فليظهر أثر هذا الإيمان في التقوى. الإيمان ليس اسماً يُعلق فوق الجماعة، بل عهد يراقب به الإنسان يده حين تأخذ، ولسانه حين

يحكم، وقلبه حين يغضب. وإذا لم يمنع الإيمان صاحبه من الظلم عند القدرة، فما الذي بقي من حضوره في الحياة؟

وهكذا تنقلنا آيتا الامتحان من امتحان المرأة في صدق هجرتها، إلى امتحان الجماعة في حمايتها، ومن امتحان الزوج في تقديم العقيدة على العلاقة، إلى امتحان الجميع في حفظ الأموال والحقوق، ثم إلى امتحان القلب في التقوى عند الفقد. كل شخص في المشهد ممتحن: المهاجرة ممتحنة في سبب خروجها، والمؤمنون ممتحنون في صدق احتضانها، والزوج السابق ممتحن في موقفه، والزوج الجديد ممتحن في أداء حقها، والجماعة ممتحنة في إنصاف من خسر، والدولة المؤمنة ممتحنة في إقامة ميزان لا تحركه العداوة. وكأن السورة تقول إن المجتمع الإيماني لا يُبنى بإيمان الأفراد في الخفاء وحده، بل بأن يتحول ذلك الإيمان إلى حماية للضعيف، وصيانة للعقد، وعدل في المال، وتقوى عند الخصومة.

وفي هذا كله تتجلى حكمة تسمية السورة بالمتحنة؛ فالامتحان لم يكن سؤالاً يوجه إلى النساء وحدهن، بل كان مرآة كبرى وضعت أمام المجتمع بأسره. جاءت المرأة تحمل إيمانها، فامتحانها، ثم امتحانهم الله بها: هل يصدقون ضعفها الظاهر أم قوة سلطان الله عليها؟ هل يحجونها أم يردونها؟ هل يحفظون حقها أم يستغلون غربتها؟ هل يعدلون مع خصومهم أم تأكل الحرب ضمايرهم؟ إننا نظن أحياناً أننا نمتحن الآخرين، ولا ننتبه إلى أن طريقة امتحاننا لهم هي امتحان لنا؛ نظن أننا نحكم على صدقهم، بينما يكشف الله في حكمنا مقدار صدقنا نحن.

بعد أن امتحت السورة صدق المهاجرات، وحفظت لهن حق الإقامة في مجتمع الإيمان، وصانت حرّيتهن العقديّة، ونظّمت ما انقطع من علاقاتهن وما يستأنف من حياتهن، انتقلت من امتحان البدايات إلى ميثاق الطريق، ومن سؤال: لماذا هاجرتن؟ إلى سؤال أعمق: كيف ستعشن بعد الهجرة؟ فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وما أروع أن تخاطب الآية النبي ﷺ بوصف النبوة في هذا الموضع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، لأن النساء لا يقدمن لمبايعة زعيم على ولائ شخصي، ولا للدخول تحت سلطة رجل من الرجال، وإنما يأتين إلى نبيٍّ يبلغ عن الله، فيكون عهدهن معه عهداً مع الوحي، وتكون طاعتهن له جزءاً من طاعتن لله.

والبيعة في أصلها ليست كلمة عابرة، بل عقد يضع الإنسان فيه يده المعنوية على عهد يغيّر شكل حياته. إن المهاجرة التي خرجت من مجتمعها لم تكن تنتقل إلى فضاء بلا التزام، ولم يكن تحررها من سلطان الجاهلية تحرراً من الأخلاق، بل انتقالاً من عبودية العرف والهووى إلى عبودية الله. فالحرية القرآنية ليست أن يفعل الإنسان ما يشاء، وإنما أن يتحرر من كل ما يستعبده ليصير قادراً على اختيار ما يرضي خالقه. ومن هنا جاءت البيعة سلسلة من الحدود التي تحرس أعظم دوائر الحياة: العقيدة، والمال، والعرض، والنسل، والصدق، والطاعة في المعروف. وكأن الآية ترسم للمرأة المؤمنة خريطة حضورها في المجتمع الجديد، فلا تجعلها تابعاً صامتاً، بل صاحبة عهدٍ مستقل، تسمع شروطه وتلتزم به وتدخل في الأمة على بصيرة.

إن مجرد تخصيص النساء بهذه البيعة إعلان عن مسؤوليتهن الأخلاقية المباشرة؛ فالمرأة لا تدخل في عهد الله ملحقاً بإيمان أبيها أو زوجها أو عشيرتها، ولا تختصر إرادتها في إرادة رجل يتحدث باسمها، بل تأتي هي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيعُكَ﴾. جاءت من بيتها بقلبها، وهاجرت بقرارها، وامتحتن في دعواها، ثم بايعت على عملها. إنها روح كاملة التكليف، كاملة الكرامة، تقف أمام رسول الله ﷺ لتعلن مسؤوليتها عن علاقتها بالله وعن أثرها في المجتمع. وما كان الوحي الذي سمع مجادلة امرأة في صدر سورة المجادلة، وحفظ هجرة المؤمنات في سورة الممتحنة، ليجعل المرأة ظلاً باهتاً في مسيرة الإيمان؛ بل جعل صوتها وموقفها وعهدها جزءاً من بناء الأمة.

بدأت البيعة من الأصل الذي تنفرد منه الحياة كلها: ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾. قبل المال والجسد والولد والكلام والطاعة، يأتي التوحيد؛ لأن صلاح الفروع لا يثبت إذا فسد الجذر. واللافت أن الآية قالت: ﴿شَيْئًا﴾ في سياق النفي، فعمت كل شيء مهما صغر في نظر النفس؛ صنماً كان أو بشراً أو هوى أو عرفاً أو خوفاً أو طاعة مطلقاً لغير الله. فلا يكفي أن تسقط المرأة أصنام الحجر إن بقي في داخلها صنم المجتمع يملك أن يردّها عن أمر الله، ولا يكفي أن تنطق بالشهادة إن كانت تهرب كلام الناس أكثر مما تهرب نظر الله، أو تمنح مخلوقاً حق التشريع المطلق في ضميرها.

إن الشرك في صورته الكبرى أن يُعبد مع الله غيره، لكنه في ظلاله النفسية يبدأ حين يزاحم شيء أمر الله في مركز القلب، فيصبح رضا الزوج أو القبيلة أو المجتمع أو الذات ميزاناً نهائياً للحلال والحرام. فجاءت البيعة تحريراً للمرأة من كل سيادة تُقام فوق سيادة الله. ليست هجرتها انتقالاً من سيطرة قوم إلى سيطرة جماعة أخرى، بل عبوراً إلى أفق العبودية لله، حيث لا يملك أحد أن يطالبها بمعصية، ولا أن يجعل طاعته جسراً إلى مخالفة ربها. ولذلك ستختم الشروط بقول الله: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، فيجتمع أول العهد وآخره على تقرير الحقيقة نفسها: الله هو المركز، وكل طاعة أخرى مشروطة بمعرفته.

والتوحيد ليس فكرة تزين مقدمة الحياة ثم تنسحب من تفاصيلها؛ إنه يدخل في طريقة كسب المال، وصيانة الجسد، وحفظ الطفل، وصدق النسب، وحدود الطاعة. ولهذا أعقبت الآية النهي عن الشرك بجملة من الأوامر الأخلاقية، كأنها تقول إن العقيدة التي لا تصنع أمانة وعفة ورحمة وصدقاً ما زالت بعيدة عن ثمرتها. قد يستطيع الإنسان أن يتحدث طويلاً عن التوحيد، لكن الامتحان الحقيقي هو: هل وحد الله حين راقب يده عند المال؟ وهل وحده حين راقب خلوته؟ وهل وحده حين اصطدمت أوامره بعبادة اجتماعية؟ فكل معصية تحمل في لحظتها سؤالاً خفياً عن السيادة: من الذي سيُطاع الآن؟ الله أم الهوى؟

ثم جاء النهي عن السرقة: ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾، فبعد حفظ العقيدة جاء حفظ المال؛ لأن المجتمع لا يقوم على مشاعر الإيمان وحدها، بل على الأمان الذي يطمئن فيه الإنسان إلى أن يده وماله وبيته مصنونة. والسرقة ليست أخذ شيء فحسب، بل كسرٌ لخيط الثقة الذي يربط الناس بعضهم ببعض؛ فالمال قد يُعوّض، لكن الشعور بالأمان إذا انكسر أصبح كل شخص ينظر إلى الآخر بعين الريبة. لذلك كانت الأمانة عبادةً اجتماعية، وكان عفاف اليد أثراً من آثار توحيد القلب.

وقد تأتي السرقة في صورة يد تمتد إلى خزانة، وقد تأتي في صور أرق من أن تراها العين لأول وهلة: انتقاص حق، أو استغلال ثقة، أو تحايل في ميراث، أو أخذ مال بحجة حاجة لا تبيح الأخذ، أو استهلاك جهد إنسان من غير أن ينسب إليه أو يكافأ عليه. وكل ذلك يلتقي عند معنى واحد: أن يتعامل المرء مع حق غيره كأنه مساحةٌ مباحةٌ لشهوته. أما القلب الذي يبيع الله، فإنه يعلم أن المال الذي يغيب صاحبه عن حراسته لا يغيب الله عنه، وأن اليد قد تخفي المسروق في أعمق مكان، لكنها لا تستطيع أن تخفي حركتها عن ﴿عَلِيمِ ذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وإدراج هذا الشرط في بيعة النساء لا يدل على اتهام جنس دون جنس، فالسرقة محرمة على الجميع، وإنما جاءت البيعة بالأصول التي تحفظ بها طهارة المجتمع، وقد خوطبت النساء بها كما يخاطب الرجال بالتكاليف، لتقرر فردية المسؤولية. فالفضيلة ليست زينة اجتماعية تطلب من المرأة حفظاً لسمعة غيرها، بل عهدٌ بينها وبين الله، كما أن ذنبها لا يصير مباحاً لأن المجتمع أغفل حقها أو ظلمها. الظلم الذي يقع على الإنسان لا يمنحه حق أن يتحول بدوره إلى ظالم، وإنما يطلب حقه بطريق الحق، لأن الطهارة لا تبني بأدوات الفساد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾. وهنا يصون الوحي الجسد لا لأنه يحترقه، بل لأنه يعرف منزلته، ويصون العلاقة بين الرجل والمرأة لا لأنه يحارب الحب، بل لأنه يريد للحب أن يدخل من باب المسؤولية والميثاق. فالزنا ليس لحظة لذة منفصلة كما تصوره النظرة السطحية، بل زلزالٌ يمتد أثره إلى القلب والأسرة والنسب والثقة والأطفال وصورة الإنسان عن نفسه. إنه يأخذ معنىً جليلاً أودعه الله في الفطرة، ثم يفصله عن السكن والوفاء والتبعة، فيتحول الجسد من أمانة إلى أداة، ويتحول الآخر من روح لها حرمتها إلى فرصة عابرة لإطفاء الشهوة.

إن العفة ليست خوفاً من الجسد، بل احتراماً له؛ فالشيء الرخيص يُتاح بلا عهد، أما الكريم فيصان بميثاق. وحين تطلب السورة من المرأة المؤمنة ألا تزني، فهي لا تجعل شرف الجماعة معلّقاً على جسدها وحدها، ولا تعفي الرجل من مسؤوليته، فالقرآن قد سوى في أصل التكليف والعقوبة بين الزاني والزانية، وإنما يخاطب هنا المبيعات بما يلزمهن. والعدل يقتضي ألا تتحول الآية في أيدي المجتمعات المنحرفة إلى سوطٍ يجلد المرأة ويغض الطرف عن الرجل؛ فالحكم الإلهي واحد، والعفة عهدٌ على الجنسين، والخيانة لا تصير أخفّ لأن مرتكبها رجل.

وللعفة باطنٌ قبل ظاهرها؛ فهي تبدأ من نظرة القلب إلى الإنسان الآخر. إذا رآه جسداً فقط، بدأت طرق الاستهلاك قبل وقوع الفعل، وإذا رآه نفساً خلقها الله وكرمها، استحي أن يجعله لحظة في نزوة. والعفة ليست جفافاً وجدانياً، بل تنظيمٌ للحب حتى لا يحرق أصحابه، وحمايةٌ للشهوة من أن تتقلب سيّداً أعمى. فالشهوة طاقة خلقها الله لاستمرار الحياة وبناء السكن، لكنها إذا انفصلت عن أمره قد تبني لحظةً وتهدم أجيالاً.

ثم تنتقل البيعة إلى أضعف كائن في البيت، ذلك الذي لا يملك أن يدافع عن حقه ولا أن يحتاج على من قرر مصيره: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾. وقد عرفت الجاهلية وأد البنات وقتل الأولاد تحت ضغط العار أو الفقر أو العادات، جفاء الإسلام ليقف بين اليد المرتجفة والطفل، ويعلن أن حياته ليست ملكاً للخوف الاجتماعي ولا للحساب المادي. إن الولد رزق من الله وروح لها حرمتها، ولا يجوز أن يتحول قلق الأم أو ضغط الأب أو قسوة القبيلة إلى حكم بالموت.

وإذا كان الواد القديم حفرة في الصحراء، فإن معناه الأخلاقي أوسع من صورته التاريخية؛ فقد يقتل الطفل مغنوياً حين يسحق صوته، أو تطفأ فطرته، أو يحمل صراعات والديه، أو يُعامل بوصفه مشروعاً لسمعة الأسرة لا روحاً مستقلة لها حق الرحمة والتربية. لا تبلغ هذه الصور حكم القتل الحسي، ولا يجوز التسوية بينهما في الحكم، لكنها تذكر بأن حماية الطفل لا تنتهي عند إبقاء جسده حياً؛ بل تقتضي صيانة قلبه من الواد، وعقله من الإهمال، وكرامته من الإهانة.

ولعل ذكر قتل الأولاد بعد الزنا يشير إلى بعض ما قد ينشأ عن الفاحشة من محاولات لإخفاء آثارها بقتل الولد أو إنكار نسبه، كما يحمل المعنى العام للنهي عن كل قتل للأولاد. وهكذا يغلق الوحي سلسلة الجريمة: لا تخونوا حرمة العلاقة، ولا تجعلوا الطفل الناشئ عن ضعفكم ضحية جديدة لذلك الضعف. إن المذنب قد يميل إلى محو الشاهد على ذنبه بدل أن يحو الذنب بالتوبة، فيرتكب جريمة أفظع كي يستر الأولى؛ لكن الله يفتح له باب الاعتراف والرجوع، ويغلق عليه باب الاعتداء على البريء.

والعجيب أن الأم التي قد تحمل طفلها في جسدها، وتغذيه من دمه، قد تدفع تحت سلطان الخوف إلى إيذائه؛ وذلك يكشف أن الفطرة، مع قوتها، تحتاج إلى هداية تهيئها حين يطفئ عليها المجتمع أو الفقر أو العار. فلا يكفي أن نقول إن الرحمة غريزة، بل لا بد أن تُصان الغريزة بوعي يجعل حياة الطفل حقاً لله لا مزاجاً للبشر. وحين يقول الله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، فإنه يضع قدرته وسلطانه إلى جانب الصغير الذي لا قوة له، ويجعل الدفاع عنه جزءاً من بيعة الإيمان.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٌ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾. والبهتان كذبٌ عظيمٌ يواجه المبهوت بما لم يكن فيه، فيحيره من شدة الافتراء. وقد فسر أهل العلم هذا في سياق البيعة بأن تلحق المرأة بزوجها ولداً ليس منه، فتجيء بطفل حملته بين جسدها ثم تنسبه كذباً إلى غير أبيه؛ وهو افتراء يهدم النسب ويخلط الحقوق ويزرع الكذب في أصل البيت. وعبرة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ تستحضر مشهد الحمل والولادة في تصويرٍ مهيب، حتى كأن الجريمة لا تُذكر بوصفها قولاً على اللسان فقط، بل كذباً صنع في أعماق دوائر الجسد ثم قُدم إلى المجتمع حقيقةً.

والبهتان أوسع في دلالاته الأخلاقية من صورة واحدة؛ إنه صناعة واقع كاذب، والباس البريء تهمة لم يرتكبها، وتحويل اللغة من أداة كشفٍ إلى أداة تزوير. وما أكثر ما يقتل الناس اجتماعياً بهتاناً لا يُسال فيه دم؛ كلمة تُلقى في مجلس، ثم تسير من فمٍ إلى فم، حتى يستيقظ البريء فيجد صورته في أعين الناس قد تبدلت، ولا يدري من أين جاءت الضربة. وقد يستطيع أن يثبت براءته أمام القضاء، لكنه لا يستطيع أن يستخرج كل نسخة من الكذبة استقرت في ذاكرة إنسان. ولذلك كان البهتان من أفظع الظلم؛ لأنه يسرق من الإنسان شيئاً لا يرى ولا يسهل رده: اسمه في القلوب.

إن المجتمع الذي تشيع فيه الافتراءات يفقد قدرته على الثقة، ويعيش كل إنسان فيه خائفاً من رواية تصنع عنه وهو غائب. ومن هنا جاءت البيعة على صدق النسب والقول، لأن الأمة لا تُبنى بأجساد اجتمعت في مكان، بل بثقة تجعل الكلمة ميثاقاً. فإذا صار الكذب وسيلةً لحل المشكلات أو ستر الأخطاء، غدا البيت نفسه قائماً على أرض جوفاء؛ طفلٌ يعيش في نسبٍ مزور، وزوجٌ يُخدع، وحقوقٌ توزع على غير أهلها، وحقيقةٌ يعلمها الله وإن اتفق البشر على دفنها.

ثم تبلغ البيعة شرطها الأخير: ﴿وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾. وهذا شرط يفتح باباً واسعاً لفهم الطاعة في الإسلام، فإذا كانت طاعة النبي ﷺ، وهو المعصوم في تبليغ ربه، قد قيدت هنا بالمعروف في خطاب البيعة، فإن طاعة غيره من البشر لا يمكن أن تكون مطلقةً من باب أولى. لا طاعة في منكر، ولا سلطان لخلق على ضمير المؤمن يجعله يعصي الخالق، ولا يملك أب أو زوج أو حاكم أو شيخ أو جماعة أن ينقل أمره من دائرة الاجتهاد البشري إلى قداسة الوحي.

وليس تقييد الطاعة بالمعروف احترازاً من أن يأمر النبي ﷺ بمنكر، حاشاه، ولكنه تأسيسٌ للأمة على طبيعة الطاعة الشرعية، وتعليم للنساء ولبن بعدهن أن التزامهن ليس إذعائاً شخصياً بلا بصيرة. إنهن يبايعن رسولاً في معروف الله، لا رجلاً يملك إرادتهن لذاته. وفي هذا تحرير عميق، فالجاهلية قد تنقل المرأة من سلطة الأب إلى سلطة الزوج، وتجعل الفضيلة أن تنفذ ما يريده الأقوى ولو خالف الحق، أما الإسلام فيجعل فوق الجميع معياراً اسمه المعروف، ويجعل الطاعة طريقاً إلى الله لا ستاراً للاستبداد.

والمعروف هو ما عرف حسنه شرع الله والفطرة السليمة، وليس ما ألقه المجتمع ولو كان ظالماً. فكم من منكر ليس ثوب العادة حتى خاف الناس إنكاره، وكم من ظلم سمي طاعة، وكم من إسكات للمرأة سمي أدباً، وكم من عدوان على حقها سمي حفاظاً على البيت. لكن الكلمة القرآنية تبقى واقفة فوق الأعراف: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾. ليس كل ما ورثته معروفًا، وليس كل ما يأمر به صاحب السلطة طاعةً لله، وليس صلاح الإنسان في أن يطفى عقله وضميره، بل في أن يعرف أمر الله ثم يزن به ما يطلبه الناس.

وفي الوقت نفسه لا يجوز اتخاذ قيد المعروف ذريعةً لهدم الطاعة الشرعية كلها خالف الأمر هوى النفس؛ فالمعروف لا يحدده المزاج الفردي، ولا يصبح الواجب منكراً لأن أداءه شاق. التحرر من الطاعة العمياء لا يعني العيش بلا نظام، وإنما يعني أن يكون النظام خادماً للحق، وأن يرد التنازع إلى الله ورسوله. فكما تحمي الآية الإنسان من استبداد الأمر، تحمي الجماعة من فوضى المأمور الذي يسمي كل ما لا يعجبه منكراً. وهذا هو ميزان الوحي: لا عبودية للبشر، ولا تأليه للذات.

بعد أن عرضت الشروط، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَبَايَعْنِ﴾. لم يأمره أن يظل ممسكاً بهن عند بوابة الشك بعد ظهور صدقهن، ولا أن يجعل ماضيهن في الجاهلية حاجزاً دائماً، بل أن يقبلهن داخل العهد الجديد. لقد جئن مؤمنات، ورضين شروط الطريق، فلهن حق الاعتراف الكامل باتمائهن. وفي هذا درس للمجتمعات التي تحسن امتحان التائب ولا تحسن استقباله؛ تسأله طويلاً عن ماضيه، ثم تظل تعرفه بخطيئته القديمة حتى بعد أن غفرها الله. أما الوحي فيمتحن ما يحتاج إلى امتحان، ثم إذا ظهر الصدق فتح الباب: ﴿فَبَايَعْنِ﴾.

إن التوبة لا تعني أن يبقى الإنسان واقفاً في ردهة الحياة يعتذر إلى الأبد، بل أن يدخل بعد صدقه في العمل والبناء. من جاء إلى الله لا يجوز أن نصنع من ماضيه قيلاً جديداً، ولا أن نطالبه بكمال لم نطالب به أنفسنا. نعم، التثبت مشروع، وحماية المجتمع واجبة، لكن الشك المستمر بعد ظهور الصدق ظلمٌ يحرم الأمة طاقات التائبين، ويحرم التائب لذة أن يبدأ من جديد. وكم من روح أرادت أن تعود، فوجدت الناس قد أغلقوا أمامها الباب الذي فتحه الله.

ثم قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لهنَّ اللَّهُ﴾. لم يكتف بالبيعة، بل أضاف إليها دفع الدعاء؛ فالداخلات في عهد الإيمان يحتجن إلى مغفرة ما مضى، وإلى قوةٍ تعينهن على ما سيأتي. ورسول الله ﷺ لا يستقبل اعترافهن ببرودة المسؤول الذي يسجل أسماءً جديدة، بل يحمل ضعفهن إلى رحمة الله، ويستغفر لهن. وما أبجل مجتمعاً لا يكتفي بأن يقول للعائد: لقد قبلناك، بل يقول له: نسأل الله أن يغفر لك؛ لا يشمت بعثرته، ولا يستثمر اعترافه ليعلو عليه، بل يراه أخاً خرج من معركةٍ مع نفسه ويحتاج إلى يدٍ حانيةٍ تثبته.

وفي الاستغفار بعد البيعة إشارةٌ إلى أن العهد مهما كان صادقاً لا يجعل الإنسان معصوماً من الضعف. إنهن بايعن على ألا يفعلن هذه الكبائر، ومع ذلك أمر النبي أن يستغفر لهن؛ لأن المؤمن يدخل طريق الطاعة وهو يحمل نقصه البشري، ويحتاج في كل خطوةٍ إلى رحمة الله. ليست النجاة نتيجة قوة العزم وحده، فكم من عزمٍ صدق في لحظته ثم ضعف تحت البلاء، وإنما النجاة أن يصدق العبد ويستعين ويستغفر، وأن يعرف أن الأوامر التي تلقاها لا يستطيع الوفاء بها إلا بمدد ربه.

ثم خُتمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. كأن كل هذه الشروط، على ما فيها من جلالٍ وحزم، محاطة من أولها إلى آخرها بالمغفرة والرحمة. لا تشركن، ولا تسرقن، ولا تزني، ولا تقتلن، ولا تبهن، ولا تعصين؛ فإن جئن صادقات نخلف باب التكليف رب غفور رحيم. ليست الحدود سياجاً حول إلهٍ يريد أن يعذب عباده، بل سياجاً أقامه الغفور الرحيم كي لا يسقطوا في الهاوية. وإذا زلوا ثم رجعوا وجدوا أن الذي أمرهم هو نفسه الذي فتح لهم باب المغفرة.

ثم تختم السورة بنداءٍ يعيدها إلى بدايتها، كأن الرحلة دارت بالقلب دورةً كاملة، فعاد إلى السؤال الأول بعد أن صار أعمق بصيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾. بدأت السورة بقول الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وانتهت بقوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وبين الداءين بُني ميزانٌ كاملٌ للعلاقة: براءة من العدوان، ورجاءٌ في الهداية، وبرٌّ للمسلم، وقسطٌ مع الجميع، وحمايةٌ للهاجرات، وعدلٌ في الأموال، وميثاقٌ أخلاقيٌ يصون مجتمع الإيمان.

إن العودة إلى النهي في الخاتمة تعني أن القلب يحتاج إلى التذكير مراراً، فلا أسبابٌ التي تدفعه إلى الولاية المحرمة لا تنتهي بموعظة واحدة. قد يكون السبب في أول السورة خوفاً على الأهل، ويكون في آخرها تشابهاً نفسياً أو مصلحةً أو إعجاباً بالقوة أو يأساً من وعد الله. ولذلك يظل الداء قائماً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. لا تعتمدوا على أنكم فهمتم الدرس مرة، فالقلوب تثقل، والمواقف تتغير، والباطل لا يأتي دائماً بوجه العدو الصريح، قد يأتي في ثوب الحليف، أو تحت عنوان الواقعية، أو في صورة منفعة عاجلة، فيحتاج المؤمن أن يعرض ولاءاته باستمرارٍ على ميزان الله.

قال تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. والغضب الإلهي ليس انفعالاً بشرياً، تعالى الله عن مشابهة خلقه، بل صفة تليق بجلاله، لها آثارها من السخط والعقوبة لمن استحقها. وإذا غضب الله على قومٍ لما قاموا عليه من كفرٍ وعنادٍ وعدوان، فكيف يطمئن المؤمن إلى ولايةٍ تضع قلبه في صفٍ يسخطه الله؟ إن الولاية ليست معاملَةً عابرة، بل قربٌ ونصرةٌ وانحيازٌ، ولذلك كان خطرهما أنها تعيد تشكيل البوصلة الداخلية؛ فالإنسان يتأثر بمن يتولاه، وبربر أخطاءه، ويتبنى أولوياته، ثم قد يجد نفسه بعد زمنٍ ينظر إلى الحق بعيون خصمه.

ولم تسم الآية القوم هنا تسميةً تاريخيةً مجردة، بل وصفت حالهم الروحية: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾. إن أخطر ما فيهم ليس فقط موقفاً سياسياً أو اجتماعياً، بل موت الصلة بالآخرة. وحين يئس الإنسان من الآخرة، تتغلق حياته داخل حدود الدنيا، ويصبح الرجح العاجل إلهاً، والقوة ميزاناً، والموت نهايةً، فلا يعود للوفاء إذا خسر ثمنٌ، ولا للعدل إذا عارض المصلحة معنى، ولا للتضحية إذا لم تكافأ في الأرض حكمة. إن الإيمان بالآخرة هو الذي يمد الأخلاق بأفقها البعيد؛ تصدق اليوم ولو خسرت، لأنك تعرف أن الحقيقة لن تضيع، وتعديل ولو لم يشكرك أحد، لأنك تنتظر ميزاناً لا يميل، وتترك الحرام ولو كان قريباً، لأنك ترى وراء اللحظة يوماً عظيماً.

أما اليأس من الآخرة فيجفف منابع الروح، ويجعل الإنسان أسيراً لما تراه عيناه. وإذا تولى المؤمن من استقر هذا اليأس في تصوره، وذابت حدوده في حدوده، تسلك إليه منطق شيطانٍ فشيئاً؛ فيبدأ بقياس النجاح بما تحققه اليد وحدها، ثم يخف في قلبه وزن الغيب، ثم يرى

الثبات سذاجةً، والتضحية خسارةً، والوفاء لله أمرًا قابلاً للمساومة. ولذلك لم يكن النهي متعلقًا
ب مجرد الأشخاص، بل بحماية قلب المؤمن من فلسفةٍ لا ترى وراء القبر شيئًا.

ثم تضرب انخاتمة صورةً موحشة: ﴿كَأَيُّ يَاسٍ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾. وقد حملت العبارة معاني عند أهل التفسير، فمنهم من فهم أن هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من الخير بعد أن عابوا مصيرهم، ومنهم من فهم أنهم يئسوا من بعث أصحاب القبور، فلا يرجون رجوعهم ولا يؤمنون بقيامتهم. وعلى كلا المعنيين تقوم الصورة على يأس مظلم يحيط بالقبور: قوم لا يرون وراء التراب بعثاً، أو أمواتاً من الكفار عابوا الحقيقة فانقطع رجائهم.

وما أقسى أن يعيش الإنسان قبل أن يدخل القبر بقلب أخذ من القبور يأسها؛ يمشي ويتنفس، لكنه لا يرجو لقاء ولا حساباً ولا عدلاً أخيراً، فيصبح جسده حياً وأفقه ميتاً. الإيمان بالآخرة ليس معلومة تضاف إلى قائمة العقائد، بل هو الروح التي تمنع الدنيا من أن تصبح قبراً واسعاً. من آمن بالآخرة رأى في كل خسارة باب تعويض، وفي كل ظلم موعد محكمة، وفي كل فراق احتمال لقاء، وفي كل طاعة بذرة ستخرج يوماً مهما غابت تحت تراب النسيان. أما من يئس منها فقد حُبس في اللحظة؛ إذا ضاع حقه ظن أنه ضاع إلى الأبد، وإذا مات حبيبه رأى جداراً لا باب فيه، وإذا غلب الظالم حسب أن الغلبة حكم الوجود الأخير.

ولذلك كانت الولاية لأهل اليأس خطراً على القلب؛ لأن الأرواح تتبادل مناخاتها، ومن جاور رؤية مغلقة على الدنيا طويلاً قد يبدأ في التنفس منها من حيث لا يشعر. ليس المطلوب اعتزال الناس أو ترك برّهم ودعوتهم، فقد بينت السورة خلاف ذلك، وإنما المطلوب ألا يمنح المؤمن زمام وعيه لمن انقطع أفقه عن الله، ولا يجعل تفسيره للحياة تابعاً لمن لا يرى فيها إلا التراب. تستطيع أن تحسن إلى اليأس، وأن تضيء له طريق الرجاء، لكن لا تجعل يأسه قائداً لروحك.

هكذا تنتهي سورة الممتحنة، ولكن امتحانها لا ينتهي بانتهاء تلاوتها، إنها تترك القارئ واقفاً أمام قلبه، يسأله عن خيوط المودة التي ألقاها في غير موضعها، وعن المخاوف التي كادت تدفعه إلى ما لا يرضي الله، وعن الأشخاص الذين أحبهم حتى أوشك أن يجعل رضاهم فوق الحق، وعن خصوم ربما ظلمهم لأنه لم يتعلم الفرق بين البراءة والجور. إنها لا تسمح له أن يخرج منها بشعارٍ صاخبٍ عن الولاء والبراء، بل بميزانٍ ترتجف اليد وهي تحمله، لأن كفته الأولى فيها الإيمان والوضوح والحزم، وكفته الثانية فيها البر والقسط والرحمة، ولا يستقيم الميزان إلا إذا كان القلب خالصاً لله.

لقد بدأت السورة بسرٍّ خرج من قلب مؤمن خائف، ثم لحقت به عين الله قبل أن يبلغ غايته، فعلبنا أن ما نخفيه ليس خارج الامتحان. ثم أقامت أماننا إبراهيم والذين معه، فعلبنا أن التوحيد ليس فكرةً بل شجاعة انفصالٍ عن الباطل، وأن هذه الشجاعة لا تستمد قوتها من القسوة بل من التوكل والإنابة. ثم فتحت باب الرجاء في تحول العداوة إلى مودة، فعلبنا أن البراءة لا تحكم على الإنسان أن يبقى أسير ضلاله. ثم فرقَت بين المسالم والمحارب، فعلبنا أن العقيدة لا تعفينا من التمييز والعدل. ثم استقبلت المؤمنات المهاجرات، فامتحتن صدقهن وامتحتن المجتمع في حمايتهن، وأبقت حقوق المال قائمةً وسط الخصومة، فعلبنا أن الإيمان إذا لم يتحول إلى أمانٍ للضعيف وعدلٍ مع المخالف فما زال ناقص الأثر. ثم أخذت البيعة من النساء على طهارة العقيدة واليد والجسد والرحم واللسان والطاعة، فعلبنا أن الهجرة ليست خروجاً من أرضٍ فقط، بل خروجٌ من منظومة الجاهلية كلها. ثم عادت في خاتمها إلى النهي عن الولاء لمن مات في قلوبهم رجاء الآخرة، فعلبنا أن أخطر التحالفات ما أعاد تشكيل رؤيتنا لله والدنيا والمصير.

والإنسان بعد سورة الممتحنة لا يستطيع أن يسأل بسهولة: من عدوي؟ قبل أن يسأل: ما الذي جعله عدواً؟ أهو اختلافه معي، أم قتاله لي في ديني وإخراجه لي من داري ومعاونته على ظلمي؟ ولا يستطيع أن يقول: أنا رحيم، قبل أن يسأل: هل رحمتي برأي أمره به الله، أم مودةً تسلم للمعتدي أسرار المؤمنين؟ ولا يستطيع أن يقول: أنا ثابت، قبل أن يسأل: هل ثباتي عدل وبصيرة، أم قسوة تستلذ الخصومة؟ فالسورة ترد الكلمات الكبرى إلى حقيقتها، وتنزع عنها الاستعمالات التي صنعها الهوى.

إن الولاء لله لا يعني أن يمتلئ القلب كراهيةً، بل أن يصبح الله أحب إليه من كل شيء، فإذا أحب الناس أحبهم تحت سقف محبته، وإذا برهم برهم بأمره، وإذا خالفهم لم يظلمهم، وإذا حاربهم لم يخذل الحق من أجلهم، وإذا تابوا لم يمنعه جرحه القديم من استقبالهم. والبراءة ليست ناراً تحرق الإنسان المخالف، بل نورٌ يفصل بين الحق والباطل، ويحفظ للقلب قبلته. والعدل ليس هدنةً مؤقتةً مع الخصم، بل عبادةٌ يحب الله أهلها. والرحمة ليست ضعفاً، بل قدرةً على إبقاء باب الهداية مفتوحاً من غير أن تهدم أبواب الحماية.

وفي السورة يتعلم المؤمن أن أقرب الناس إليه قد يكون موضع امتحانه، لا لأن القرابة شر، بل لأنها محبوبة، والامتحان لا يكشف ترتيب المحاب إلا حين تتعارض. قد يمتحن بأب إبراهيم، أو بأهل يخشى عليهم كحاطب، أو بزوج تفارقه المهاجرة، أو بولد تتزاحم عنده مخاوف الفقر والعار، أو بجماعة يخشى أن تلفظه إن قال الحق. وفي كل صورة يأتي السؤال نفسه بوجوه مختلفة: من في مركز قلبك؟ فإذا كان الله في المركز، لم يطلب منك أن تفقد أحبابك من وجدانك، بل أن تضعهم في المكان الذي يحفظ حبك لهم من أن يتحول عبودية لهم.

وما أعمق أن يكون التوكل في قلب هذه السورة: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. كأن علاج الخلل في الولاء ليس مجرد معرفة الأحكام، بل تصحيح موضع الاعتماد. فالإنسان قد يخون مبدأه لأنه يظن أن سلامته في يد مخلوق، ويداهن لأنه يخشى أن ينقطع عنه رزق، ويحامل الباطل لأنه يريد حماية أهله، فإذا امتلأ قلبه بأن الله هو الحافظ والرازق والمالك، تحرر من الحاجة إلى شراء الأمان بالمعصية. إن كثيراً من فساد المواقف يبدأ من فساد التوكل؛ نعرف الحق، لكننا لا نتق أن الله يكفيننا إذا دفعنا ثمنه.

ثم إن السورة لا تجعل القلب معلقاً بلحظة الصراع وحدها، بل ترفعه إلى اليوم الآخر: ﴿لَنْ تَنفَعَكَ أَرْحَامُكَ وَلَا أَوْلَادُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، و﴿لَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، ثم تحتّم بالذين ﴿يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾. فالمعركة الحقيقية بين رؤيتين: قلب يرى الدنيا مشهداً داخل قصة أكبر، وقلب يظنها القصة كلها. من رأى الآخرة استطاع أن يترك مودة محرمة وإن آلمته، وأن يعدل مع خصمه وإن لم يكافئه، وأن يحفظ عهداً لا يراه الناس، وأن يبدأ حياة جديدة بعد الهجرة. أما من غابت عنه الآخرة فسيميل إلى كل قوة عاجلة، ويزن المبادئ بثنها الأرضي، ويعجز عن فهم تضحية لا يرى مكافأتها بعينه.

يا قارئ سورة الممتحنة، لعل الكتاب الخفي لم يخرج اليوم مع امرأة في طريق مكة، لكنه قد يخرج من قلبك في صورة تنازل لا يراه أحد، أو كلمة تقوها طلباً لرضا من تخشاه، أو سرّ تبوح به لتشتري لنفسك موضعاً، أو صمت عن حق كي تحمي مصلحة قريبة. تذكر عندها: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. وليس هذا العلم تهديداً فقط، بل أمان أيضاً؛ فالله الذي رأى ضعف حاطب رأى صدق أصله، والذي كشف خطأه لم يمح فضله، والذي منعه من سبب محرم قادر أن يحفظ أهله بغير ذلك السبب. إن عين الله التي تراك حين تزل هي نفسها التي تراك حين تقاوم الزلل ولا يعلم بمعركتك أحد.

ويا من وقفت بين الله ومن تحب، لا تظن أن الوفاء لله خيانة للحب، إنما هو تطهير له من أن يطالبك بما ليس من حقه. أحبب أهلك، واحتمل لأجلهم، وأحسن إليهم، وادع لهم، وابك إن ضلوا، كما كان إبراهيم رقيقاً بأبيه، لكن قل في أعماق قلبك: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. لا تملك نجاتهم، لكنك تملك ألا تهلك معهم، ولا تملك أن تهدي قلوبهم، لكنك

تملك أن تظلي باباً للهدى بسلوكك؛ ولا تملك أن تمنع عنهم كل أم، لكنك تملك ألا تصنع لهم أماناً مؤقتاً بمعصية تفتح عليهم، عليك ألماً أبقي.

وبا من خاصمت قوماً من أجل الحق، نظف خصومتك كل ليلة من حظ النفس. اسأل: هل أفرح لو هداهم الله، أم أنني تعلقت بصورة انتصاري عليهم؟ وهل أعدل إذا تكلمت عنهم، أم أختار من أخبارهم ما يثبت كراهيتي؟ وهل أفرق بين محاربيهم ومسالهم، أم أجمع الجميع في حكم واحد لأن التمييز متعب؟ تذكر قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. اترك في قلبك مكاناً لمعجزة الهداية، ولا تجعل عداوتك للباطل تتحول إلى اعتراض خفي على أن يغفر الله لصاحبه.

وبا من دخلت الإيمان بعد ماضٍ ثقيل، لا تظن أن الباب قد فتح لك لتظل واقفاً عند العتبة. إذا صدقت هجرتك، فادخل في البيعة، وابن حياتك من جديد، واحرس توحيدك ويدك وجسدك وولدتك ولسانك وطاعتك. واسمع وراء التكليف كلها هذا النداء الرحيم: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِهِنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لست مطالباً أن تأتي إلى الله بلا ماضٍ، بل أن تأتيه صادقاً، ولست مطالباً أن تضمن لنفسك ألا تضعف أبداً، بل أن تعاهده، وتستعين به، وتعود إذا زللت.

وهكذا يخرج القلب من سورة الممتحنة وقد تبدلت خريطة: الله في المركز، والآخرة في الأفق، والناس في مراتبهم التي وضعها الحق؛ قريب يبر ولا يطاع في معصية، ومخالف مسلم يقسط إليه، ومعتد يحذر ولا يوالى، وتائب يفتح له باب المودة، وضعيف مهاجر يحمى، وحق مالي يؤدي ولو لصاحب عدو، ونفس لا تزكى بل تستغفر. فلا يبقى الولاء صرخة على اللسان، بل يصير هندسة خفية للقلب؛ تحدد ممن يستمد أمانه، ولمن يكشف سره، وبأي ميزان يجب ويبغض، وإلى أي يوم يرفع عينيه حين تضيق به لحظة الدنيا.

ولعل أعظم ما يقوله السورة في خاتمة الرحلة هو أن القلب لا يعرف في أوقات السعة، بل عند تراحم المحاب؛ حين يكون الحق في جهة، والأهل في جهة، والمصلحة في جهة، والخوف في جهة، ويقف الإنسان وحده لا يسمع إلا خفقان قلبه. هناك تبدأ «الممتحنة». وهناك لا يخيه أن يعرف أسماء الأحكام، بل أن يكون الله عنده أعظم من كل اسم، وأقرب من كل قريب، وأبقى من كل مصلحة. فإذا اختار الله، لم يخسر الحب، بل تعلم كيف يحب على نور، ولم يخسر الناس، بل كسب القدرة على العدل معهم؛ ولم يخسر نفسه، بل استعادها بعد أن كانت موزعة بين المخاوف.

ربنا عليك توكلنا، فلا تجعل خوفنا على ما نحب يقودنا إلى ما تكره، وإليك أنبنا، فردّ قلوبنا إليك كلما جذبتها وجوه الأرض، وإليك المصير، فلا تجعل حاضراً عبيراً يحجب عنا يوم لقائك. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، ولا حجة للباطل بسوء أفعالنا، ولا باباً للظلم باسم نصره الحق، واغفر لنا ما أخفينا وما أعلننا، وما التبس علينا وما تعمدنا، وما ألقيناه من مودة في غير موضعها، وما منعناه من برٍّ عن استحققه. ربنا اجعلنا من المقسطين الذين تحبهم، ومن

المتوكِّلِينَ الذين كفيتهم، ومن المنيبين الذين لم تغلق في وجوههم باب الرجوع، واكتب لنا قلباً
إذا امتحن اختارك، وإذا ضعف عاد إليك، وإذا أحبَّ أحبَّ بنورك، وإذا أبغض لم يخرج
عن عدلك، حتى نلقاك بقلبٍ لم يجعل لأحدٍ معك سلطاناً.